الساخرون

نماذج من القصة الساخرة في سورية

أديب نحوي . حسيب كيالي . سعيد حورانية . فارس زرزور . وليد اخلاصي . محمد نور فطيم . وليد معماري . محمد كامل الخطيب . محمود عبد الواحد . حسن م. يوسف . سامي حمزة . حكم البابا . خطيب بدلة . حسين علي البكار . حاتم علي . أحمد عمر . مصطفى الحاج حسين

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الأهالي

إعداد خطيب بدلة

صديقي القاص القصير جميل حتمًا
وبالتأكيد ودونما شك وصه كل
بد.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه
قال: قال رسول الله (صلى): من
صام اثنين وثلاثين يومًا من شباط،
عامدًا متعمدًا، حجب الله عنه
النار، المفولة من نار جهنم بعدد
بعدد سبعين مرة إذا كانت عود كبريت،
وثلاثًا وعشرين مرة إذا كانت قرنة
بردى تيرولية.

وفي رواية أخرى أن شهر شباط عبارة
عن شهر فضيل، خصوصًا لدى أصحاب
الدخل المحدود، صغار الكسبة،
لأنه يفرط بسرعة، غير مأسوف
عليه، أو كما قال.

وعن الترمذي، عن البيرقي،
عن ابن يحيى ابن أبيه قال، الشهر
شهر: الساخرون.

التوقيع: الساخرون

عنهم

٥/ك/١٩٩٠

* الساخرون
* اعداد: خطيب بدلة
* الطبعة الأولى ١٢ ـ ١٩٩٠
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ـ ص.ب: ٩٥٠٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

الساخرون

نماذج من القصة الساخرة في سورية

اعداد: خطيب بدلة

أديب نحوي
حسيب كيالي
سعيد حورانية
فارس زرزور
وليد اخلاصي
محمد نور قطيع
وليد معماري
محمد كامل الخطيب
محمود عبد الواحد
حسن م. يوسف
سامي حمزة
حكم البابا
خطيب بدلة
حسين علي البكار
حاتم علي
أحمد عمر
مصطفى الحاج حسين

* أما السخرية فهي نتاج لحياتنا، فلو لم نتعلق بأستار السخرية لكنا قد هلكنا.

* السخرية سلاح قوي جداً نحن في حاجة إليه.

اميل حبيبي

ملاحظات

أعـرف أن المطلوب مني، بعـد إذ فرغت من اعـداد هذا الكتاب، هو كتابةُ مقـدمـة له. وهنـا، بالضبـط، يكمن الإحـراج. فأنـا ـ لا أخفي عليكم ـ أكـره مقـدمات الكتب، ولا أقرأها، وياما استهترت بها وبدأت بقراءة العمل فوراً، على الـرغم من أن مقـدمـات بعض الكتب تكـون، احيـاناً، أهم من الكتاب نفسه؛ مقدمة ابن خلدون مثلاً.

ولكي أنفذ من هذه المسألة، فقد اهتديت إلى طريقة أفضل وأهون وبنت ناس؛ وهي الاكتفـاء بتـدوين ملاحظـات سريعـة، أتـرككم بعـدها تدخلون في الأهم. وأظن أنكم ـ من أجل هذا وليس غيره ـ ستسجلون لي علامة طيبة:

١ ـ لقـد ظهـرت القصـة السـاخـرة في سوريـة، أول ما ظهرت، في مطلع الخمسينات، وبالتحـديـد، في عام ١٩٥٢ عنـدمـا أصدر الأستاذ حسيب كيالي مجموعته الأولى «مع الناس».

٢ ـ أحب الناس هذا اللون القصصي كثيراً. دليل ذلك ان احداً من القصاصين السوريين لم يَنَل الشعبية التي نالها حسيب كيالي. . وحتى لوكان، فرضاً ـ من وجهة نظر نقدية فنية ـ أهم من حسيب.

٣ ـ الوسط الثقافي تحفّظ على هذا اللون في حينه، ثم اتضح لهذا الوسط أن تحفظه لم يكن في محله. وصلتُ إلى هذا الاستنتاج وأنا أقرأ رأياً لأحد أهم رواد وممثلي التيار الواقعي في القصة السورية، الأستاذ سعيد حورانية:

«. . برأيي إن حسيب كيالي كاتب مهم. لقد بدأ بداية رائدة في القصة السورية لوعمقها لأنتج أدباً عظيماً. لكننا في ذلك الوقت لم نفهمه بشكل صحيح، بل واضطهدناه. كنا نبحث عن أدب ثوري لا يبقي ولا يذر. أما حسيب فكان يتابع تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة بحثاً عن النكتة. وكنا نرى فيما يكتبه قصصاً ظريفة لطيفة لا أكثر. أما هدفنا الأعلى فقد كان: قصة ثورية تزن أربع قنابل ذرية!»[1].

٤ ـ خلال هذه الفترة الزمنية ظهر عدد لا يستهان به من كتاب القصة في سوريا، وعدد لا يستهان به منهم مهم، وقد حققوا إضافات لا يستهان بها إلى رصيد القصة السورية، أما في مجال القصة الساخرة فلم يتكرس قاص ساخر نموذجي واحد كحسيب كيالي. إلا أن هذا لا يعني انهم لم يتعاطوها.

٥ ـ السخرية زاوية نظر ـ إلى الواقع ـ مختلفة، وربما كان هذا أهم الأسباب التي تجعل كتابتها صعبة بعض الشيء، وكذلك فان الأمر يتطلب أن تكون شخصية الكاتب (المتشكلة من تربيته وظروفه وتأثير بيئته. .) ساخرة.

٦ ـ الأدب الساخر (في الأغلب) أدب واقعي، ومن هنا تأتي أهميته. ولا اعتقد ان القصة الذهنية يمكن ان تكون ساخرة، لأن القصة الذهنية، أساساً، لم

---

١ ـ مجلة دراسات اشتراكية ـ العدد الثقافي الثالث ـ صيف، خريف ١٩٨٨.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

تنجح في تناول أي موضوع بأي أسلوب كان، فمن أين لها أن تنجح في أن تكون ساخرة؟

٧ ـ فترة الثمانينات (وقد حصلت فيها تبدلات اقتصادية . ـ التضخم مثلاً ـ واجتماعية .) وترجمت فيها إلى العربية أعمال أدبية عالمية ساخرة، (بعض أعمال عزيز نسين ـ رواية ياروسلاف هاشيك)، بالاضافة الى احداث زاوية «قوس قزح» في جريدة تشرين، في هذه الفترة اصبحت القصة الساخرة، لا أقول مقبولة فقط، بل ومطلوبة!

٨ ـ من قصاصي الثمانينات الذين استهوتهم (الأجواء الساخرة في القصة) حسن م يوسف، لكنه لم يكتب قصة ساخرة نموذجية حتى عام ١٩٨٧ (قصة حماريات).

٩ ـ وليد معماري لم يتجه إلى كتابة القصة الساخرة إلا بعد نجاح تجربته في «قوس قزح» . .

١٠ ـ أما الاستثناء الوحيد، أقصد القاص الوحيد الذي يحاول أن يكون قاصاً ساخراً منذ البداية، فهو احمد عمر.

١١ ـ لم أقع، أثناء بحثي عن القصص الساخرة السورية، على قصة ساخرة واحدة للكتاب من جنس النساء.

١٢ ـ وأخيراً . . فان هذا الكتاب يسعى، بتواضع، إلى تقديم «دليل» للقصة الساخرة في سوريا، وهذا الدليل قد ينفع الدارسين في المستقبل، وقد لا ينفعهم، لكنه، في كل الأحوال، يهدف إلى امتاع القارىء وإفادته.

«خضع ترتيب القصص لاعتبار وحيد وهو أقدمية الكاتب في الظهور».

خطيب بدلة

ادلب ٩/ ١٢/ ١٩٨٨

مجلس الرحمة

أديب نحوي*

وقعت بالأمس في حارتنا حادثة تموّت الواحد من الضحك. ذلك ان حمدان فسفسة الذي يعمل زبالاً في قميّل الحمام، خرج من منزله، متوجهاً لأول مرة في حياته إلى مدرسة الحارة. ممتطياً ظهر البغل الذي يحمّله طيلة النهار أكوام القمامة، ومستعجلاً جداً، فهو يضرب جنبي البغل بحبل الرسن هاتفاً به: حا. يا بغل حا. أسرع دخيلك يا بغل قبل أن تضيع من يدي الفرصة.

وهكذا حتى وصل حمدان إلى باب المدرسة، فقفز من فوق ظهر البغل إلى الأرض قفزة كبرى كادت تنكسر بها رجله. ثم دخل وكأنه يقتحم الباب اقتحاماً

---

* - من كتاب الأربعينات: مؤلفاته القصصية: «كأس ومصباح» «من دم القلب» «حتى يبقى العشب أخضر» «حكايا للحزن» «قد يكون الحب» «مقصد العاصي».
مؤلفاته الروائية «متى يعود المطر»، «عرس فلسطيني»، «تاج اللؤلؤ»، «سلاح الأعزل».

وفي قدميه، تخفق الشحاطة، فلما اعترضه الآذن الجالس وحده في مدخل الباحة، قائلاً له:

ـ ماذا تريد يا أخ؟

أجاب حمدان وهو يلهث لهاثاً شديداً:

ـ أريد مقابلة مدير المدرسة يا حاج.

فقال له الحاج آذن المدرسة:

ـ المدير مشغول وكذلك كل المعلمين، ولا يقابلون أحداً هذا اليوم، لأنهم مجتمعون في مجلس الرحمة.

عند ذلك تأثر الفسفسة كل التأثر، واخذ يتمتم وقد ظهر على وجهه الزعل:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. رحمة الله عليه. فمتى تكون الجنازة لنمشي فيها ونكسب الأجر يا حاج؟

ما هذا؟!

ان الحاج آذن المدرسة فغر فاه من الدهشة واستعجب.

قال:

ـ لك أي ميت تتكلم عنه يا زلمة وأي جنازة؟!

قال الفسفسة:

ـ الميت الذي يترحّمون عليه يا حاج.. ألم تقل لي انهم مجتمعون في جلسة الرحمة؟.

فانفجر الحاج بالضحك الشديد: ها ها ها. كي كي كي.

وظل يقهقه حتى غابت خواصره من الضحك. قال: لأنه لم يلتق طيلة حياته برجل أبله مثل ذلك الذي أخذ يترحّم على الميت في مدخل باحة المدرسة والمجلس مجتمع في جلسة الرحمة.

ثم أنه، وقد رثى لذلك المسكين رثاء لا نظير له، اخذ يعلمه ان الرحمة

القاعدة في غرفة الإدارة بالمربع الفوقاني، ليست سوى مجلس يجتمع فيه المعلمون برئاسة مدير المدرسة، ليمنحوا الرحمة من يستحقها من التلاميذ بعد انتهاء الامتحانات وهم يقررون ما اذا كان التلميذ ينجح أم انه يرسب في صفه، وذلك استعداداً لتوزيع الجلاءات في مطلع الأسبوع القادم.

واذا بحمدان فسفسة ينبسط عندئذ بسطاً مفاجئاً وقد تألقت عيناه بالفرح وهو يقول للحاج:

ـ الله يمدّ بعمرك ويبحبح في زيتك. دخيلك يا احسن الطيبين من حجاج المدارس ويدي في زنّارك. اسمح لي اذن بمقابلة مجلس الرحمة.

قال حمدان وهو يخاطب نفسه من شدة السرور:

ـ هذا توفيق من عند الله انك جئت يا حمدان إلى المدرسة والرحمة مجتمعة في الجلسة. وتحكي للمدير والمعلمين عن الظروف والأحوال، فيلهمهم رب العالمين ان يرحموا ابنك احسن رحمة.

فأخذ الحاج عند ذلك يتهكم بحمدان فسفسة وهو يسأله:

ـ هل انت آت إذن إلى المدرسة، وتطلب، يا عيني ما أفهمك، مقابلة المدير ثم كل مجلس الرحمة، هكذا يا سلام وبدون كلفة، فكأنهم اصحابك الأعزاء من مئة سنة، لتتوسط يا مسكين من أجل ابنك!.

فلما أجابه حمدان: نعم يا حاج.

مضيفاً: ـ لأن معلمه الأستاذ إبراهيم أفندي الكسّار هو أكبر الظالمين في العالم.

مقسماً يميناً وهو يصفه:

ـ الله وكيلك. إذا حطَّ على ظهر مركب فلا بد من أن يغرّقه.

داعياً للحاج ان يحظى بشفاعة النبي محمد يوم الحشر وهو يرجوه:

ـ دعني أقابل مجلس الرحمة قبل ان يصل الأستاذ ابراهيم الكسّار قادماً من عند الحلاق حسن الصوص، لعلي أستطيع ان أخلّص ابني من بين يديه، الله

يحفظ لك أولادك من كل مكروه، وخصوصاً من مكروه وقوعهم في يد الأستاذ الكسّار.

لما قال الفسفسة كل ذلك وهو مستعجل في الكلام ويلتفت فينظر إلى باب المدرسة كل لحظة، ليتأكد من ان الأستاذ الكسّار لم يصل بعد، طار عقل الحاج آذن المدرسة من الغضب. واخذ يمارس فوراً أعباء وظيفته بكل شدة وهو يعيِّط، قائلاً للفسفسة إنه قليل الحياء ولا يستطعم، متسائلاً وهو يطلب منه هويته ليشكوه إلى المخفر:

ـ من أنت يا هذا حتى تتكلم عن الأستاذ ابراهيم أفندي الكسّار بهذا الشكل؟ العمى ألا تستحي؟!

ثم ان الحاج وقد شم من ذلك الذي لا يستحي، وهو من نحوله كأنه هيكل عظمي، رائحة العفن المنبعثة من درّاعته وسرواله، اشمأز. ونظر إلى وجهه بامعان، فلما وجد أن لونه أصفر كأنه وجه رجل ميت، تابع هجومه عليه وهو يسأله:

ـ أليس في وجهك نقطة دم؟

عند ذلك كان مدير المدرسة قد أطل من شباك غرفة الادارة منزعجاً وهو يسأل الآذن:

ـ ما هذا العياط يا حاج؟ وكيف تخاطب هذا الرجل بهذه الألفاظ، مِنْ لا يستحي إلى ليس في وجهه نقطة دم! الله يصلحك. هل نحن في خان ام اننا في مدرسة؟

فأجابه الحاج وهو يدافع عن نفسه:

ـ الحق عليه يا أستاذ. . لأنني ما أن أعلمته ان المدير مشغول مع المعلمين في اجتماع مجلس الرحمة ولا يستطيع مقابلتك، حتى اخذ يطلب مقابلة كل مجلس الرحمة. ولم يكتف بذلك بل أخذ يتكلم عن الأستاذ ابراهيم أفندي الكسّار انه

ظالم. ولم يكتف بذلك بل يصف الأستاذ ابراهيم انه إذا حطّ على ظهر المركب، يغرّقه..

قال المدير:

ـ كفاك زعقاً به. ودعه يصعد إلى غرفة الادارة لنرى ما يريد، فنحن لم نبدأ اجتماعنا بعد وما زلنا بانتظار وصول الاستاذ ابراهيم.

* * *

صعد حمدان فسفسة في الدرج العالي المؤدي إلى غرفة الادارة وهو مرتبك جداً. فتعثر مرتين، وقع في احداهما وكاد رأسه يرتطم بحجر الدرجة لولا انه تشبث بالدرابزون وهو يعاتب الدرج: ما هذا يا درج! ان ركوب ظهر البغل أسهل من الصعود فيك. ثم انه، عندما دخل إلى غرفة الإدارة ووقف هناك وهو مضطرب كل الاضطراب أمام مدير وعشرة من المعلمين الأفندية، نسي ان يسلم قبل ان يتكلم، بل قال مباشرة وبدون أي مقدمات:

ـ دخيلكم يا أفندية، انقذوا ابني من بين أيدي الاستاذ ابراهيم الكسّار.

ثم لما تذكر، يا عيب الشوم، فكيف انه لم يسلم، عاد إلى ابداء التحية مغمغماً: السلام عليكم ورحمة الله. وهو يعتذر قائلاً:

ـ لا تؤاخذوني لأني نسيت ان أسلم، فما ذلك إلا لأني كنت مستعجلاً وأخشى ان يصل الأستاذ ابراهيم الكسّار قبلي فتطير فور وصوله إلى مجلسكم، كل الرحمة وانا استكمل الصعود في الدرج.

لكن احداً من المدير والمعلمين لم يرد على حمدان السلام. وقد عبسوا. وهم يرمقونه بنظرات شديدة من الغضب. ايه! الله يسامحكم. فهل لأني نسيت أصول اللياقة عند الدخول إلى المجالس؟ طيب. الحق معكم. لكن اذا كان الشخص لم يدخل طول حياته إلى المدرسة مرة واحدة، وخرج من بيته راكباً ظهر البغل وهو

يركض به في أزقة الحارة ركضاً ليصل إلى المدرسة بسرعة قبل ان يضيع منه ابنه، بينما الأولاد الصغار يصفقون له وهم يصيحون في الطرقات: بغل حامل فسفسة. فكيف تزعلون منه، لأنه وهو في هذه الحالة الصعبة، نسي ان يسلم عليكم قبل ان يبدأ الكلام. ايه. الله يسامحكم.

فهكذا اخذ حمدان يخاطب المدير والمعلمين في سره ويسامحهم تماماً ولا يزعل منهم ابداً. ثم انه لوى عنقه على كتفه الأيمن مثلما يفعل الولد اليتيم في جنازة أبيه، واخذ يرجوهم وهو باسط ذراعيه امامه:

ـ يا أفندية المدارس لا تؤاخذوني، فانا لم أتعلم في المدارس. اعطوني أيديكم لأقبلها. بل هاتوا أرجلكم كذلك. واعلموني، من بعد أمركم، أين توجد منازلكم. فاني مستعد للذهاب إليها كل يوم، حتى لو كانت على مسافة ساعة من ركوب البغل عن قميِّل الحمام، لأجمع من امام ابوابها اكوام قمامتكم، فقط من اجل ان ترفعوا عن ابني ظلم معلمه الأستاذ ابراهيم افندي الكسَّار.

عندئذٍ كان لا بد لمدير المدرسة من ان يرد فوراً على ما بدا له أنه تحامل مغرض على احد معلمي مدرسته، لكن زملاء الأستاذ ابراهيم كانوا قد غضبوا. واخذوا يوجهون إلى الفسفسة كلمات شديدة من مثل: ما هذه الوقاحة! واضبط يا هذا ألفاظك. واحفظ لسانك. فانزعج المدير مرة اخرى:

ـ ما هذا يا حضرات الأفندية!

وخبط وجه المنضدة بيده فسكت المعلمون على مضض. لكن الزبال الواقف في منتصف الغرفة، وقد وجد ان التنبيه موجه إلى حضرات الأفندية وهو ليس منهم، لم يسكت. بل تابع شكواه قائلاً:

ـ يا..

فقاطعه المدير عند ذلك وهو ينهره:

ـ عيب يا رجل. فماذا فعل الأستاذ ابراهيم الكسَّار بابنك حتى تتهجم عليه كل هذا التهجم؟

فاندفع الفسفسة عند ذلك إلى الكلام وقد واتته الفرصة، قائلاً وهو يتعجب:

ـ ما هذا الأستاذ يا أفندية، ما هذا الأستاذ! في علمي ان الأستاذ يعلم التلاميذ في مدرسة حارتنا القراءة والكتابة حتى آخر صف فيها وهو الرابع، أليس كذلك؟ لكني لم اسمع وقد بلغت من العمر اربعين سنة، عن معلم مدرسة يدق أبواب بيوت آباء التلاميذ وهو يصيح بهم: يا مجرمين. ثم يذهب بعد ذلك إلى دكان الحلاق في سوق حارتنا وهو حسن الصوص صاحب صالون الانشراح، ليزعق به أمام زبائنه: يا طمّاع. يا مستغل، وكلمة أخرى لم أفهمها لأنها صعبة. آخرها هازي وأولها أنت. فهي هكذا: أنت هازي. ولا يكتفي بان يوجه اليه تلك الكلمات الشديدة وخصوصاً أنت هازي، بل يهدده كذلك: انه سيظل يفضحه في السوق وفي الحارة كلها إذا لزم الأمر، حتى لا يترك احداً يحلق عنده.

قال حمدان فسفسة، بعد ان سكت لحظة ليلتقط ليهومنفعل كل الانفعال، أنفاسه، متسائلاً لعله يجد جواباً عند احدٍ ممن يكلمهم عن تلك المسألة العويصة. قال:

ـ يا أفندية. لا تؤاخذوني. اعتبروني كأني تلميذكم واشرحوا لي، من فضلكم لعلي أفهم. لأني وأنا زبال، لم أتعلم سوى جمع القمامة من الأزقة فوق ظهر البغل وحملها إلى القميل لحرقها فيه من أجل تسخين ماء الحمام. قولوا لي، أرجوكم، هل يدخل في عمل معلم المدرسة ما يفعله الاستاذ ابراهيم افندي الكسّار بي وبابني وبالحلاق حسن الصوص؟ ان كان لا يدخل فتفضلوا وارفعوا عني وعن ابني ظلمه. أما اذا كان ذلك من صميم عمله، فسامحوني لأني لم اكن اعلم. واطردوني فوراً من مجلس رحمتكم بل قولوا لي اني انت هازي، واحلف لكم منذ الآن، يميناً بالله العظيم، اني لا أزعل.

ان مدير المدرسة ومعلميها المجتمعين في غرفة الادارة، وهم لم يسمعوا فعلاً عن معلم مدرسة يفعل كل تلك الأفعال المدهشة، ظلّوا صامتين وهم يتعجبون

أشد العجب. فاغتنم حمدان فسفسة الفرصة واخذ يحكي لهم بالتفصيل، ما حدث.

قال:

ـ منذ ان انتهى الفحص قبل عدة ايام، وابتدأت بذلك عطلة الصيف وابراهيم افندي الكسّار يأتي إلى منزلي كل صباح ليدق بابه بالسقّاطة. أول يوم فتحت وأنا لا أعرفه. فما ان شاهدني حتى فاجأني قائلاً:

- أهكذا تضيّع ابنك بكري في السوق؟

أنا ظننت ان حادثاً قد وقع لابني. سألته وانا أرتجف من الذعر:

ـ ماذا جرى لبكري في السوق؟ قل لي، دخيلك، هل عفسته السيارة؟

أجابني وهو مقطب وجهه:

ـ أفظع.

فدخت وسقطت فوراً على الأرض حيث لم أصحُ إلا وزوجتي ترشّ وجهي بالماء البارد من الطاسة. بينما كان احد جيراننا، وقد ذهب لاستطلاع ما جرى في السوق، قد عاد وهو يصيح من اول الزقاق:

ـ لا تخف يا جار فابنك سليم معافى ولم يحدث له شيء.

وفي صباح اليوم التالي، سمعت الباب يُقرع من جديد. خرجت وفتحت فإذا به واقف هناك. قال: أنا ابراهيم الكسّار المعلم في مدرسة الحارة، فهل عرفتني؟

قلت: تشرفنا. قال: لا تزعل مني لما حدث صباح الأمس فما ذلك إلا لأني اريد منعك من ارتكاب الجريمة. قلت: أي جريمة يا أستاذ! قال: جريمة القتل. أليس انك تقتل ابنك بيديك يا ظالماً لا يخاف الله. فنفرت من عينيّ الدموع. ـ هل معقول يا أستاذ ان الواحد يقتل ابنه!

قال وهو يرمقني بنظرة مخيفة: اخبرني الصدق، هل انه ابنك فعلاً من دمك ولحمك؟

ايه!! ما هذا يا استاذ، ما هذا؟!

انا فهمت معنى سؤاله فوراً، فناديت: يا أم بكري. أنت ام بكري ومدت رأسها من خلف الباب وهي تسألني: خير ان شاء الله. قلت لها: يسأل الأستاذ ان كان ابني بكري من دمي ولحمي أم انه ليس كذلك. فهيا اخبريه لأنك اعلم مني بهذا الأمر. لكن ام بكري البهيمة لم تفهم. قالت: يعني ماذا؟ قلت لها يعني هل انا ابوه الذي بذره ام رجل آخر؟ فزعقت ام بكري وهي تلطم صدرها بيدها مثل المجنونة: ولي على راسي. قلت للأستاذ ابراهيم: لماذا تسألني هذا السؤال: قال: لأنك لو كنت أباه الحقيقي، فكيف تفعل به ما فعلت؟!

* * *

قال حمدان فسفسة، بينما جماعة الرحمة ينظرون إليه مدهوشين:

ـ كل ذلك وتحملتُه. لكن المسألة تطورت صباح هذا اليوم إلى ما لا يمكن احتماله ابداً. حيث قُرع الباب فقلت بصوت منخفض: لا تفتحوا يا أولاد. لكن الحلاق صاح من الزقاق: أنا حسن الصوص. ركضت وفتحت فوجدت الصوص ممسكاً بيد ابني بكري ويقول لي: خذ ابنك عني يا حمدان وخلصني من هذه الورطة. سألته: ماذا جرى يا حسن الصوص؟ قال: أنا رجل وطني. وفي أيام الجهاد من أجل الاستقلال، علقت صورة ابراهيم هنانو في صدر دكاني وأنا اتحدى الفرنساويين. قال: أنا لست خائناً وروحي فدى وطني. ثم انهمرت من عينيه الدموع. قلت له وقد تأثرت غاية التأثر: يا حسن الصوص، انا اعلم انك حلاق وطني، وكنت تذهب وتحلق للمُلاحَقين من ابناء حارتنا الذين يلقون القنابل على مصفحات الفرنساويين، وتحفظ سرهم، فلا يعرف احد منك عن المكان الذي يتوارون فيه، كلمة. فمن الذي قال انك خائن؟ قال حسن الصوص: انه الاستاذ ابراهيم الكسّار. منذ ثلاثة ايام وهو يحضر إلى دكاني، ويتهجم عليّ

بالكلام القاسي، فأضحك واقول له: سامحك الله. لكنه اليوم تمادى وقال لي: يا خائن. قلت له: زدتها يا استاذ. فلم يتراجع. بل اخذ يعيِّط، وقد تجمع في دكاني اهل السوق، صائحاً: اني لو لم اكن خائناً لما رضيت بان اشغِّل عندي ابنك أجير حلاق. قال هذا ولد يجب ان يظل يتعلم في المدرسة حتى يصل إلى الجامعة، حيث انه سيتخرج منها وهو عالم من العلماء ليخترع لنا اختراعات لا شك انها ستساعدنا على تحرير فلسطين. قال: فكيف انك تتفق مع أبيه على ان يترك المدرسة من أجل ان يتعلم عندك صنعة الحلاقة، لو لم يكن أبوه مجرماً وانت خائناً للوطن يا عميل الاستعمار!

* * *

قال حمدان فسفسة وهو يخبر المجتمعين في غرفة الادارة بآخر ما حدث معه هذا الصباح. قال:

انه اغتنم الفرصة، وهرع مسرعاً من بيته لمقابلة مدير المدرسة واذا به يجد بتوفيق من الله، ان الرحمة كلها مجتمعة في المجلس وبدون الأستاذ ابراهيم الكسَّار الذي ما زال مرابطاً في السوق ينتظر عودة الحلاق حسن الصوص إلى دكانه ليتأكد من انه أعاد ابني إليّ، متعهداً ان لا يقبله مرة اخرى، أجير حلاق في صالون الانشراح. قال: لأنه ذهب بنفسه وسجله في الصف الخامس من مدرسة العرفان الكائنة في سوق المحمص وسيجعلني ولو غصباً عني أوافق على إعادة ابني إلى المدرسة في اول السنة القادمة.

عند ذلك كان رئيس أعضاء مجلس الرحمة قد عرفوا من هو التلميذ. فأخذوا يسألون حمدان من كل زاوية في غرفة الإدارة:

ـ هل انت إذن والد التلميذ بكري معجزة؟

قال:

ـ كلا: أنا حمدان والد التلميذ بكري فسفسة.

فأعلمه المدير فوراً، انهم يدعون ابنه في المدرسة انه معجزة لا فسفسة. لأنه لا يوجد فيها، بين خمسمائة تلميذ، ولد يضارعه في الذكاء.

قال المدير: لأننا نتوقع جميعاً إذا تابع ابنك الدراسة حتى نهايتها في الجامعة، أن يكون من ألمع العلماء.

ثم ان المعلمين اخذوا يسألونه مستنكرين فعلته الشنيعة:

ـ فكيف تقبل ان تخرجه من المدرسة، غير مبال بمصلحة الوطن يا حمدان فسفسة؟!

* * *

وقعت صباح يوم الأمس في مدرسة حارتنا، قبل يومين من حفلة توزيع الجلاءات، حادثة تموّت الواحد من القهر.

ان حمدان فسفسة أعلم المدير والمعلمين: ان القميِّل لا يحتاج في الصيف إلى كثير من القمامة، لأن أهل الحارة ومعظمهم من الفقراء المساكين لا يرتادون الحمّام في الصيف إلّا نادراً. بل يسخّنون الماء بالتنكات في حر الشمس ويغتسلون في بيوتهم. وصاحب الحمام لا يعطيني طيلة فصل الصيف سوى نصف أجرتي. ولما كانت اجرتي الكاملة لم تعد تكفي عشرة من الأولاد خبزاً ومجدرة بالبرغل وعدساً بحامض ملح الليمون، فماذا أفعل؟

ثم انه بعد أن اقسم يميناً بالله العظيم ان حسن الصوص حلاق وطني، أضاف قائلاً وهو يشكو ويستغيث: ـ انقذوني، كرامة لسيد المرسلين، من ظلم الأستاذ ابراهيم الكسّاريا افندية، ولكم عند الله أكبر الأجر وأعظم الثواب. هاتوا ورقة ابني قبل ان يصل الأستاذ ابراهيم، واجعلوه يرسب في الصف الرابع فلا ينجح أبداً إلى الخامس. لعلي اتمكن من إعادته إلى صالون الانشراح ليتعلم

صنعة الحلاقة عند حسن الصوص. فيتناول وهو ما زال أجيراً ثلاث ليرات في الأسبوع أضيفها إلى اجرتي لأزيد بها كمية ما اشتريه من الطحين من أجل تأمين الخبز للأولاد. وبذلك تكون قد حدثت فعلاً في بيتي أكبر معجزة من المعجزات في العالم.

ثم ان الفسفسة ظل يتوسل اليهم وقد انهمرت من عينيه الدموع: ـ يا طيبون. يا أهل المروءة والنخوة. اشفقوا عليّ وساعدوني. الستم أنتم مجلس الرحمة؟

---

* ـ من مجموعته القصصية «مقصد العاصي» الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٨٢.

البصبصة

حسيب كيالي*

كان النائب العام فتى في مقتبل العمر، لما يمض على تخرجه من كلية الحقوق وقت طويل. وقد حل بالبلد منذ اشهر قليلة، فاستولى عليه، لست تدري لماذا، احساس بأنه موضع تحد من هيئة القضاء كتاباً ومحامين وقضاة. من هنا كانت عنايته الشديدة بمرافعاته وصحف اتهامه، وإكبابه عليها الليالي، ليالي لما يملأها المعارف والزملاء بالسهرات «الأعلية» (كما يسمي السهرات العائلية احتقاراً منه لها!) اصلاً هو غير متزوج بعد، والقضاة او المحامون المتزوجون لا يدعونه إلى سهراتهم إلا لماماً، ومن قبيل فضّ العتب.

---

* ـ رائد القصة السورية الساخرة. أعماله القصصية «مع الناس» «أخبار من البلد» «رحلة جدارية» «حكاية بسيطة» «تلك الأيام» «الحضور في أكثر من مكان» «المطارد» أعماله الروائية «مكاتيب الغرام» «أحزان البنفسج الصغيرة» أعماله المسرحية «الناسك والحصاد» «المهر زاهد» «في خدمة الشعب» «ماذا يقول الماء».

قضية «البصبصة» كما أسمتها الصحف، التي رافع فيها هذا الأسبوع، مثال واضح على اجتهاده ولمعانه. قضية بسيطة يمر في المحكمة آلاف مثلها، ولكن، أية مرافعة «نقش» فيها! أين العبقرية في أن يتميز نائب عام في مثل قضية سفاح رأس الخيمة التي هزت الدولة من رأس الخيمة إلى جزيرة داس؟! أو في قضية سرقة موصوفة كقضية سرقة سوق الذهب في أبي ظبي؟ العبقرية في أن يلمع في قضية مثل هذه و«ينقش» فيها صحيفة اتهام تنشرها الصحف كافة، لا لأنها تحفة قانونية وحسب، ولكن لأنها تحفة أدبية ايضاً.

ما يزال يبتسم لبراعة الاستهلال:

«يا حضرات المستشارين!».

كان كله لصحيفة اتهامه، فلما هدر «يا حضرات المستشارين» هذه، لم ينتبه إلى الوجه الذي صار على القاضي، وجه لا تخفى سخريته وهو يهمس في ذات نفسه: «تضرب في شكلك، شكل التيس. أين هم المستشارون يا فهيم؟ المحكمة كلها هي انا وهذا الكاتب الذي وجهه على إصبعين!».

كان أبو صلاح القاضي، كهلاً، أميل إلى السمن، بادي الطيبة، يحب خلال مرافعات النائب العام الفتى ان يرسم وهو يحلم ان رسمه ظريف، وانه لو كان في غير هذا البلد، الذي لا هم له إلا الأكل والشرب والتقاضي، لكان كرس نفسه كلها للفن، وربما عاش فيه. ألم يرسم لوحة حصان جامح واهداها إلى صديقه عبد الكريم في التلفزيون فعرضها، يوم سباق الخيول الأصيلة في الجميرة على الشاشة الصغيرة شارة للبرنامج! الإبتسامة ذات التهكم الطيب الخفيف التي استقبل بها «يا حضرات المستشارين» مردّها إلى ان عينيه شافتا أرمالاً من مثل هذا الطاووس الذي يؤمن انه بـ «يا حضرات» ـه هذه قادر على ان يجلّس محور الأرض الأعوج!

وأما الكاتب، ويسمونه هنا أمين السر، وقد كان وجهه عريضاً، وجبهته بارزة عريضة، وشارباه عريضان.. وكل هذه «العروض» لا تتناسب بأية حال مع

دقة عنقه التي تشبه عنق الديك الهندي، وصدره قفص العظم، وبطنه الغائر، وساقيه الدقيقتين اللتين يخيل إليك انهما ستقصفان تحته لو زاد وزنه عشرة غرامات. هذا الكاتب، هو ايضاً، همس لنفسه قائلاً: «الله يسامح أهلي الذين ما تركوني اكمل علمي وآخذ شهادة الحقوق حتى صار مثل هذا الديك في موقف النائب العام وانا في مجلس أمين السر».

ومضى النائب العام الفتى يقول:

«أمامكم ايها السادة المحلفون.. اقصد المستشارين، قضية ولا كالقضايا، قضية قد لا يتسنى لي في هذه العجالة [الحاح على كلمة «العجالة» ولفظها بشيء غير قليل من الزهو] الاحاطة بابعادها الاجتماعية والسيكولوجية، والديموغرافية والسياسية جميعاً. لذلك سأكتفي بالكلام على بعض اخطار الجرائم المماثلة، وتهديدها أمن المجتمع وأكاد اقول وجوده. ذلك انها في الدرجة الأولى تمس ميراثنا القومي الذي يتسلمه الخلف، كالراية، من السلف الصالح ولا سيما في معاملة الجار التي تعرضها جرائم من هذا النوع للشباب والبوار. وأنتم لاتحتاجون إلى من يذكر حضرتكم بان نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظل يوصي بالجار حتى حسب الصحابة الأبرار، رضوان الله عليهم، انه سيورثه. ناهيكم بان المتهم الواقف امامكم معجِّز مكرر «يبتسم» كما كان يقول عريف صفنا في المدرسة الابتدائية، واعني ـ بالتعبير القانوني ـ انه صاحب سوابق.

وسأؤجل الحديث في الآثار الأخرى المشؤومة التي تترتب على جريمة كجريمة المتهم إلى ما بعد عرض الوقائع. ما هي هذه الوقائع حسب تسلسلها الواقعي؟ في الزمان: المتهم الماثل امامكم اعتاد التلصص على بعض المنازل الواقعة في منطقة فريج المرر، إلى ان وقعت أنظاره الآثمة على احد المنازل فتسلق جدار سوره، واستطاع بهذه الطريقة الدخول خلسة حيث ظل واقفاً لعدة دقائق خلف باب الحمام، متلصصاً على سيدة البيت البريئة التي كانت وحدها حينئذ. تصوروا يا سادة، كانت وحدها وهو يتلصص من ثقب الباب في اثناء قيامها

بالاستحـمام فأعجبـه النظـر إليهـا، ولكن استمتـاعـه بالمشهـد «اللطيف» لم يدم طويـلاً؛ . . وخـلاصتـه، حين شعرت السيدة المحترمة بان حركة غير عادية تدور بالقـرب من باب الحـمام. ولمـا تأكدت من ذلك، أطلقت صيحاتها القوية كما يجدر لسيدة عفيفة أن تفعل، فحضر الجيران لإنقاذها من براثن عينيه، حيث تمكنوا من إلقاء القبض عليه، واقتياده إلى المخفر صاغراً.

في أثنـاء التحقيقـات التي أجـراهـا رجال الشرطة مع المتلصص اتضح بعد ذلـك انـه يدعى جورج كوتي ويبلغ من العمـر ٢٢ سنة ومن ذوي الجنسية الهندية ويعمل في احدى المؤسـسات الواقعة في هيرة ويقيم في دبيّ منذ سنوات في منطقة فريج المرر، حيث أقر ـ دون أي ضغط أو إكراه ولمجرد ذكاء محققي الشرطة في توجيه الأسئلة واستخـلاص الأجـوبة كما عودونا دائما ـ عند تدوين أقواله في محضر تحقيق الشرطة بأن الواقعة التي روتها المشتكية صحيحة، وانه كان يتلصص عليها بوضع احـدى عينيـه في ثقب باب الحـمام، مستغـلاً فرصة خلو المنزل من بقية أفراد أسرة المشتكيـة. وبنـاء على هذه الاعترافات تمت إحالته إلى النيابة العامة لتقديمه إلى المحاكمة وهذا ما فعلته هذه الأخيرة.

أيها السادة: قد يخطر على بالكم ان تجدوا للمتهم العذر، ان تقولوا إن فتى في مثـل سنـه قد يقـع له مرة واحـدة نتيجـة ان يخطىء. ولكنكم ستصعقـون اذا اظهرت لكم ان المتهم قد سبقت له حوادث مماثلة واضبارته في الشرطة أكبر دليل.. فقد عمل حاله قد وقع بالساعة وذلك في احد شوارع بر دبي المكتظة، فتمدد على طولـه فوق احـد الأرصفـة، وقد وقّت ذلك في لحظة مرور سيدة أجنبية تلبس روباً من نوع الكلوش قصيراً من قربـه وحكّم وقوعه تحت الروب مباشرة، وتظاهر بان عينيه مغمضتان، ولكنه في الحقيقة كان يغمض احدى عينيه احتيالاً، وأما العين الثانية فكانت مبحلقة، بدليل انه ازاح بيده طرف الروب كأنه يفتح مظلة، وفتح عينيـه الاثنتين. صحيـح ان السيـدة الأجنبيـة لم تدّع عليـه يومئذ، لأن الأجانب متـــاهلون كما تعلمـون في هذه المسـائـل، ولكن اهـل الشـارع الـذين هرعـوا

لإسعافه، ظناً منهم، يا لسلامة نيتهم! انه صدقاً واقع في الساعة، شهدوا عليه بسوء النية والرغبة في التلصص بعد أن تبين لهم أنه صحيح معافى، وقد حكم يومها بالسجن اسبوعاً حكماً تخفيفياً لأن المحكمة اخذت بعين الاعتبار ان المتهم لم تكن له سوابق وانه يعول اسرة في بلده، الهند.

وهكذا ترون ايها السادة انكم لستم امام مجرم صدفة وانما مجرم عمد. وهنا لا بد لي من إلقاء الضوء على جانب آخر من جوانب خطورة جرائم مثل جريمة المتهم جورج كوتي. ذلك اننا اذا سمحنا لكل هندي ان يتلصص على السيدات المحترمات في الحمامات، او ان يسيء إلى سمعة البلد السياحية بالتمدد تحت أرواب السيدات الأجنبيات، لا لذنب جنينه إلا انهن يلبسن فساتين قصيرة، فاننا نكون قد أبحنا السرقة، اذ ما هي السرقة إذا لم تكن ضرب عيني السارق على مال الغير. وجسد السيدة م. ن. وكذلك ساقا السيدة الأجنبية، انما هي مال زَوْجَيْ هاتين السيدتين ورأسمالهما، أي انها ـ الجسد والساقان ـ المال غير المعرض للأعين المتلصصة أي للسرقة!

وتدخل القاضي وهو يخفي ابتسامة كادت تغلبه فتظهر عريضة جذلى، قال في صوت لا يكاد يذهب إلى ابعد من النائب العام:

ـ أرى من أوراق القضية ان السيدة م. ن المتشكية أرملة!

فاحتد النائب العام، وقد أوقعه القاضي في الفخ:

ـ هذا لا ينفي ان جسدها عارياً هو مال الغير. انها ما تزال صبية نسبياً. وقد تتزوج مرة اخرى، «الشاكية تخفض عينيها إلى الأرض على استحياء» والآن ايها السادة ستسمعون تفاصيل هذه الحادثة المروعة من فم المشتكية السيدة م. ن. نفسها.

وتقدمت السيدة المدعية من قوس القاضي الذي أحدَّ فيها النظر مدهوشاً. قال في نفسه: «أيش هذي! هذي سوداء زرقاء!». فعلاً، لم يكن في وجه المرأة ما يغري. وشعرها وحده كان فيه أثر عمل عند الحلاق. ويظهر انه خفيف فقصته

غلامياً. كانت امرأة نصفاً، ضيقة الجبهة، واسعة الفم، ظاهرة العصبية والحدة اميل إلى الطول ولا سيما ساقاها، حشو جلدها، في هندامها محاولة تأنق لا تظهر إلا في ضيق فستانها الشديد، قدماها كبيرتان، وعجزتها رابية. وبعد ان أقسمت اليمين القانونية بوصفها شاهدة إثبات، سألها النائب العام:

ـ هل انت على معرفة بالمتهم يا سيدة؟

ـ لا يا سيدي، انا لا أعرفه ولا يعرفني.

ـ اروي لنا تفاصيل الحادث من الأول.

ـ والله يا حضرة الحاكم..

ـ النائب العام من فضلك.

ـ ... كنت قد قلعت فستاني وبدأت أفك..

وأسرع النائب العام إلى اسكاتها مع انه هو الذي سألها ان تروي له الحادث تفصيلاً.

قال:

ـ وبعد هذا بماذا شعرت؟

ـ شعرت، حضرتك سيد العارفين: الحُر خاطره دليله. لما فككت الـ ...

ـ بعد الفك، بعد الفك..

ـ بعد الفك، الله يسلمك نَزَّلت الـ ...

ـ بعد التنزيل، بعد التنزيل.

احتدت المشتكية:

ـ بعد التنزيل صفيت..

ـ بعد ان صفيت، بعد ان صفيت..

ـ لا، هذا سؤال!؟

ـ أقصد ان اقول لك: بعد كل شيء بماذا شعرت؟

تسرب إلى صوتها الفتور وعادت حركاتها خلواً من الحماسة البدئية التي مازّت مستهل شهادتها. قالت كأنها تسمع محفوظات:

ـ بحركات مريبة وراء الباب.

ـ من هنا ابدئي من فضلك.

زاد صوتها هموداً، وتابعت رواية الحادث بما لا يخرج عما أورده النائب العام في صحيفة اتهامه. ثم ان القاضي استدعى المتهم فتقدم من موقفه بين شرطيين كان ظاهراً عليها الملال والاستسلام. وبعد ان حلف اليمين سأله: «ماهي شهادتك؟» فاعترف بكل ما قالته السيدة الشاكية في شهادتها من انه قام فعلاً بتسلق سور منزلها، وبعد ان تمكن من الدخول تبين له ان المنزل خال إلا من السيدة، وهي المشتكية، التي كانت في الحمام، عرف ذلك من حركة الحياة الوحيدة الصادرة من المكان المذكور، فأثير فضوله، ووضع عينه في ثقب الباب، واذا هي قد قلعت الفستان فبدت استدارات جسد رائع..

وأسرع النائب العام يقاطعه:

ـ اقفزْ إلى الحوادث رأساً...

قال المتهم في براءة:

ـ ولكني قلت لسعادتكم قبل قليل إني قفزت سور..

ـ قلت لك: اقفز إلى الحوادث!

اعتذر المتهم جورج وقال:

ـ حاضر سيدي.

وأما المشتكية فقد تهلل وجهها بالبشر وتندى صوتها بالمرحمة وقالت في دل موجهة الخطاب إلى النائب العام:

ـ خله يكمل سيدي.

فانتهرها النائب العام.

ـ المهم هو الحادث. اكمل.

قال المتهم:

ـ فلما بدأت تفك.. ال...

ـ بعد الفك، بعد الفك.

بدأ صوته يكتسب عصبية وحدة. وقال المتهم:

ـ اخذت تنزّل..

ـ بعد التنزيل.

بلع المتهم ريقه وقال:

ـ القصير اللطيف.

صاح النائب العام:

ـ بعد القصير، قلت لك.

ـ كان جسداً مذهلاً يا صا...

قالت المشتكية وهي تكاد تذوب وقد لفتت وجهها لفتة خفر قبل ان تخفض عينيها إلى الأرض:

ـ يوه، شوها الحكي هذا!

وقال النائب العام باترا:

ـ يعني انك تعترف؟!

قال المتهم في رنة تنطوي على طيف من مكر وتسليم للقضاء والقدر:

ـ أعترف ان جسد السيدة اذهلني حتى شعرت ان عيني التصقت..

ـ اوجز، اوجز.

ـ ووجهها ايضاً.

ـ يوه!

ـ وبعد، وبعد!

ـ وبعد، فوجئت بعد بضع لحظات لم تطل مع الأسف بفتح السيدة المشتكية الباب على مصراعيه وهي..

وسأل القاضي الوحيد وهو يكتم ابتسامة دائماً.

ـ هل كانت عارية لما فتحت الباب على مصراعيه؟

تنهد المتهم وقد عاد ينظر إلى السيدة:

ـ تماماً يا سيدي «تماماً» وهذا ما ادى إلى القبض علي.

ـ اوضح.

ـ لقد شلني المنظر فلم استطع الهرب..

ـ يوه!

ـ أي نعم، صار في وسع طفل ابن خمس سنوات ان يقبض علي.

ـ يوه، والله مهضوم.

واستطاع النائب العام آخر الأمر اسكات «الشاهدين» واكمل قراءة صحيفة اتهامه حيث طالب بانزال اقصى العقوبات بالمتهم الذي يهدد قيم المجتمع، ويتلصص على املاك الغير. وجاء دور المتهم فطلب الرأفة لأنه يعول أسرة في الهند ليس لها غير الله وكرم اخلاق المشتكية والمحكمة الموقرة، ولم يخيبه القاضي الذي كان طوال الجلسة بادي الجذل، فحكمهُ اسبوعين.

وقد أطرفتني هذه القضية فظللت أسعى حتى تعرفت باحد السجانين وهو بلوشي لطيف، وسألته عن اخبار جورج كوتي فأخبرني ان سيدة محجبة، طوالاً، حشو جلدها تحمل له كل يوم سفرة كاملة لا تنقصها حتى الفاكهة، والمرة الأولى التي جاءت فيها الحبس فور احتجاز جورج كان مع الطعام مروحة صينية انيقة عليها صور يدوية غرامية. ويرى صديقي السجان البلوشي ان مبرر هذه الهدية ربما كان خلو السجن من مكيف للهواء!

---

* * ـ نشرت في جريدة البعث عام ١٩٨٤.

عريظة استرحام

سعيد حورانية*

إلى جناب حظرت الحكومة الموقرة في الشام، أدام الله بقاها ونفعنا ببركاتها اجمعين آمين.

سيسلمكم حاملها محمد بن اسماعيل عبد الساتر هذه العريظة معتمداً منا جميعاً، وهو سيقول باسمنا كل شيء لسعادتكم، وكل قول أو حديث يصل إليكم من غير محمد بن اسماعيل المذكور، هو كذب علينا جميعاً.. ونحلف بالله العظيم ونبيه الكريم على ذلك. والهمام محمد بن اسماعيل عبد الساتر شاب طويل أسمراني له خال على خده الأيسر ووشم اسد على ساعده الأيمن، وهو يقرط بالراء في كلامه فانتبهوا للعلامات جيداً.

---

* - من كتاب الخمسينات. أعماله: «شتاء قاس آخر» «في الناس المسرة» «سنتان وتحترق الغابة»، وكلها قصص قصيرة.

نحن أهالي قرية أم الربع التابعة لقضاء الميادين من محافظة دير الزور الموقرة، مجتمعون في بيت محمد علي، وقد كلفنا ابننا المحروس «سويلم النصر الله». بكتابة هذه العريظة إليكم، وكل كلمة فيها نقّلناه إياها جيعاً، فهي من كلامنا جملة، وتمثلنا كل التمثيل، وكل ما فيها مظبوط تؤيده عموم الوقائع الصحيحة التي لا مجال فيها للشك أو الابتعاد عن الحقيقة.

ولا نكتمكم أسيادنا، أن بعض المتهورين عندنا أرادوا ان يعملوا بعض الأعمال العنيفة بعائلة فايز الديراني لكثرة ما انزل فينا من مصائب وويلات لا يصبر عليها احد، ولكن ذوي العقل هنا وخاصة المختار الشيخ سليمان خالد المحمود، قرروا ان نقتصر الشر وان نبعث إلى جناب سعادتكم بهذه العريظة، عسى ان تدبروا الأمر بحكمتكم، وما عرف عنكم من خدمة المظلومين آناء الليل وأطراف النهار.

ولقد قال لنا بعض الشباب المتهورين أيضاً، ان هذه العريظة ما تساوي حبة قمح وانكم لن تردوا عليها أبداً.. لأن فايز الديراني متنفذ عندكم في الشام، وهو قريب للوزير أسعد الشامي، والمذكور يساعده علينا، ولكننا نعلم وتعلمون انه ليس لنا بعد الله سبحانه إلا أنتم، وان عدالتكم التي تشبه عدالة عمر بن الخطاب، الذي اقتص من أمير هشم أنف احد الرعية عندما داس هذا على ذيله.. إلى نهاية السالفة الآنفة الذكر التي تعرفونها اكثر منا، والتي لا شك انكم درستموها في الكتب القيمة.. نقول ان عدالتكم تأبى ان تتأثر بمثل هذه المشاكل الكذابة التي يشيعها عنكم أعداء لهم فيها مآرب ومصالح.

أسيادنا أعظاء الحكومة الموقرة في الشام.

من قلوب منفطرة، وأعين دامعة نبعث إليكم بهذا الاسترحام.. أنتم تعلمون حظرتكم أساس الخلاف بين اهالي قرية ام الربع، وفايز الديراني، فنحن قد ولدنا في القرية المذكورة وكذلك آباؤ نا وآباء آبائنا، بل ان محمد العبد الله يملك

ورقة قديمة في بيته تمثل شجرة عائلته ترجع على حد قوله لى أبينا آدم عليه السلام. وكل هؤلاء الأجداد كانوا فلاحين في قرية أم الربع.

وفي زمن الترك الأسود، جاء من دير الزور، قبل حرب السفر برلك أبو فايز الديراني المعروف بمحمد الديراني، واشترى قطعة أرض على الفرات في الناحية الشرقية تبلغ مئتي دونم فقط، من أسرة جاد الله الفرحان التي بقيت في الأرض اياها تشتغل له بالأجرة. وحاول محمد الديراني أن يشتري قطعاً اخرى من أهالي قريته ولكن بدون فائدة، فاقتطع بواسطة المتصرف التركي، مدحت محمود أبو الكرباج ما ينوف على ثلاثة آلاف دونم من احسن ما في الأرض الشرقية من مساحة القمح، مع بساتين من الأرض الغربية، وشرد أهالي هذه الأراضي نحو الصحراء العراقية بعد ان قتل منهم خمسة وجرهم في طريق القرية بواسطة الجنود الترك السكارى امام اعين الفلاحين.. وانتم تعلمون يا أسيادنا اعطاء الحكومة العلية في الشام، ان الزمن التركي والعياذ بالله كان زمناً أرذل من فيظان الفرات، وكان خالياً من الرحمة وخوف الله، فقد كنا نخبىء يومياً الدجاج والخرفان في الأراضي البعيدة، خوفاً من غزوات العساكر الأتراك المتتالية، ونتحمل الظرب الشديد بالكرابيج والعصي، أما بناتنا فقد كنا نبعث بهن منذ ظهور الفجر نحو البساتين حتى في عز الشتاء، حتى لا تقع احداهن فريسة للعساكر السكارى الذين كانوا يرتكبون فواحش ومنكرات لا نستطيع تأدباً ان نذكرها لأسماعكم الشريفة.

ولما ذهب زمن الترك المشؤوم أتى زمن ألعن وأدق رقبة. زمن الفرنسيين أعداء الوطن والدين، كان محمد الديراني قد مات وقام مكانه، ابنه فايز الديراني المعروف لدى جنابكم تماماً. وقلنا عسى أن يكون الابن أحسن من الأب، ولكن يا للأسف وكما يقول المثل (طب القدرة على تمها لا تطلع لغير أمها) والعرق دساس ونستغفر الله، فان فايز السالف الذكر كان أنحس من أبيه الذي يستقبل الآن الملك الجبار يحاسبه على كل شروره وذنوبه التي فعلها معنا، وصار يمشي على

خطواته ورحم الله أهل الأمثال ما تركوا شيئاً لم يقولوه: الثلم الأعوج من الثور الكبير.

وأنتم يا جناب الحكومة قد جاهدتم الفرنسيين في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم تحقيقاً لقوله جل وعلا: وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم. صدق الله العظيم.. وتعلمون جيداً أساليبهم الظالمة في معاملة عباد الله!!... وفي يوم شؤم من أيام الشتاء، جاءنا خمسة من الدرك ومعهم أمر سلموه إلى المختار، بنزع كل ملكية أراضينا منا بحجة عدم حملنا لسندات تمليك رسمية أولاً، ولأننا لم نكن نحلب صافياً مع حكومة الفرنسيين ثانياً. وطارت عقولنا لأننا سمعنا الشيء الكثير عن أولئك المشردين الذين هجوا إلى بر العراق، فقتلهم البدو واخذوا بناتهم لأمر لا يريده الله. واخذنا نبكي ونسترحم بدون فائدة، كأننا نكلم نقرة أحجار. ولم نستطع ان نقاوم لقلة السلاح الذي أخذه الفرنسيون في حملة تفتيش واسعة قبل سنتين، فالعين بصيرة واليد قصيرة، والعين لا تقاوم المخرز كما يقولون.

وجاءنا في اليوم الثاني فايز الديراني فجأة كالجني، واخذ يظحك في وجوهنا، وعزمنا إلى مظافة المختار، وهدّأ عواطفنا، وأقنعنا أنه ذو مكانة كبيرة عند الفرنسيين هو وقريبه وزير الزراعة الحالي أسعد الشامي. ولأجل ان لا نشرد من بيوتنا، ويصيبنا ما أصاب غيرنا ممن ذهبوا إلى بر العراق ولم يرجعوا حتى الآن، قال لنا: لينزل رؤساء العائلات معي إلى جناب الحاكم الفرنساوي، ولتقولوا له: ان هذه الأراضي ملك فايز الديراني حتى لا يأخذها، وعندما تنكشف الغيمة، ويتغير الحال، يعيد فايز المذكور الأراضي إلينا.

وخطعنا يا سادتنا اعظاء الحكومة الموقرة للأمر الواقع، وسلمنا أمرنا إلى واحد أحد، فرد صمد، قائلين لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا إلى آخر الآية... وظللنا في أراضينا نتقاسمها مع فايز الديراني الذي كان يأخذ النصف

بدون أي حق، وكـان كلما نقّصنـا عليـه مداً واحـداً من القمح، يهددنـا بفسـخ الاتفاق، وهكذا كنا نصبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبدون طول سيرة عليكم، وحفظاً لوقتكم الثمين لأننا نعلم أنكم تنظرون يومياً، مئات من العرائظ المشابهة لعريظتنا هذه.. صبرنا على هذا الوظع الظالم حتى عهد الاستقلال.

وفي عهـد الاستقـلال يا سادتنـا قمنـا بحمـل على قدر الحـال في ظرب الفـرنسـويـين أعـداء الـوطن والدين. وهاجمنا الثكنة في (الميادين) بالاشتراك مع أهالي البلد المذكور. وقتلنا جماعة غفيرة منهم وغنمنا من السلاح مقداراً كبيراً.

وعنـد مجيء فايـز الـديـراني إلى أم الربع، طالبناه بفسخ الاتفاق، ولكنه يا للعجب ظرب الطمع في رأسه وسبنا وشتمنا وقال إنه ليس لأحد منا حق في الأرظ بتاتاً، وانه تفضلاً منه يبقينا في أراظيه التي يعلم الله ورسوله والناس أجمعون قصته معها ومعنا.

عند ذلك غظبنا غظباً شديداً ما عليه من مزيد، وظربه المختار وكسر شوكته في نصف المظافة فخرج يهدر كالجاموس، وفي اليوم التالي، وفي عهد الاستقلال يا سادتنـا، جاءنـا عشـرة من الدرك، فظربونا وأهانونا أمام حريمنا، وشتمونا بألفاظ فاحشة مخجلة، وشدوا الشيخ عثمان من شيبته نحو الأرظ وأشعلوا بلحيته النار حتى اظطـر لإلقـاء نفسـه في السـاقيـة لإطفـائها، واخذوا خمسة وعشرين رجلاً منا إلى السجن مع أربع نسـاء إحداهن فاطمة العليوي زوجة المختار نفسها.

ومـاذا نقـول لحظرة جنابكم بعد ذلك؟ وماذا نذكر من الحوادث التي يشيب لهولها الأطفال والرظّع في السنوات السبع التالية؟ كنا دوماً في أخذ ورد، وكروفر مع فايز الديراني المذكور، واسمحوا لنا هنا، ولا مؤاخذة، ان نؤكد على تحيز حكام عهد الاستقلال له. كأن الحكومة لم توجد ـ وحاشاكم ـ إلا لتعين علينا أعداءنا،

وتظربنا، وتسجننا، وتناصر علينا هذا الرجل الذي هبط علينا بلاء من السماء. فوق بلاء القحط وفيظان الفرات.

تحملنا كل شيء كما هو معلوم لدى سعادتكم، ولكن قبل شهرين طفح الكيل وطرأ شيء جديد مخوف على أرظنا، فقد سمعنا زعيقاً ذكرنا بأيام طيارات الفرنسويين، ثم رأينا ما لم نكن نصدقه منذ أيام، رأينا خمسة من الآلات الحديدية الكبيرة التي يسمونها الطراقتورات، والتي نعرف انها تحصد في يوم واحد ما يعجز عنه عشرون فلاحاً في دورة قمر كاملة، ومزقت هذه الشياطين المرعبة أراظينا كالحيتان الكبيرة.

عند ذلك، وأنتم تعذروننا تماماً يا سادتنا أعظاء الحكومة، فقدنا صبرنا وعقولنا، وعرفنا من السوالف والقصص التي جرت في القرى القبلية، حيث تشرد الفلاحون من هذه الآلات، اننا سنهلك نحن أيظاً!! فهجمنا عليها بالبواريد والكرابينات واحرقنا اثنين منها، وهرب الباقون نحو الميادين.

وبعد ساعتين فقط، جاءنا جيش كامل من الشرطة والدرك وخلافه، يركبون المصفحات مما ذكرنا بعهد الفرنسويين، وانهالوا علينا بالرصاص. ثم قلّعونا نحو الشرق، وقتلوا منا سالم عبد ربه والطفل حميدان الراعي والمرأة صالحة بنت عبد الحق وجرح منا أربعة.

وبتنا تلك الليلة في العراء تحت المطر والبرد الشديد.

ونحن معذورون، والبادىء أظلم، في ان نرجع في اليوم الثاني إلى القرية، وكل منا واظع الموت أمام عينيه، وحامل روحه على كفه. فاحتللناها بالقوة، حيث معلومكم، كل ما لنا من طعام ومؤن موجود في القرية، ولا نستطيع ان نموت كالكلاب الجرباء بعيدين عن أراظينا وبيوتنا.

والآن يا أصحاب المعالي، نحن لا نستطيع ان نخرج كل يوم من أراظينا كلما جاءتنا قوة، لنعود إليها عندما تغادرها، وقد مات منا الكثيرون ومرض

الأطفال والنسوان. وظننا، وبعض الظن إثم: انكم انتم تتعدون علينا لا فايز الديراني، واعذرونا يا سادتنا الكرام على هذا التطاول، فقد وصلت أرواحنا إلى حلوقنا وبلغ السيل أعلى الجبل.

أفيدونا أفادكم الله، أنقذونا بحق المصطفى أعانكم الله، ارفعوا الظلم عنا فقد كدنا نفطس ونموت كالخيل المصابة. اسمعوا استرحامنا واقبلوا عريظتنا بحق جميع الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين، انتم لكم أولاد وبنات فاحموا أبناءنا وبناتنا من هذا الرجل الذي لا يخاف الله والذي يناكدنا ويعتدي علينا. والله العظيم وحقّ نبيه الكريم وحق الخلفاء الأربعة الراشدين لم نجن ذنباً واحداً وكلنا مخلصون للاستقلال وقدمنا البراهين على ذلك. أتريدون ان نموت جميعاً من الجوع والبرد؟ حاشاكم ذلك!!! ارحموا من في الأرظ يرحمكم من في السماء، لاقوا لنا بعقلكم الحصيف الراجح مخرجاً يخرجنا من هذه البلوى ربنا يستركم ويفتح عليكم وينصركم على عداكم ويدخلكم جنان رحمته انه سميع مجيب.

(حاشية) نسينا ان نذكر لكم ان فايز الديراني قد اعتدى على خديجة الأزرق بنت الشيخ محمد علي، وجعل البنيّة خا سرة باثرة. وقد رمت المسكينة نفسها في الفرات ولاقت وجه ربها الذي لا يظيع عنده الحق.

(حاشية ثانية) سنموت جميعاً قبل ان نخرج من الأرظ.. امنعوا الطوشة والمذبحة نحن واثقون بعدالتكم ان لا تتركونا نموت بحق المصطفى المختار.

(حاشية ثالثة من المختار) لم يبق عندنا بذار، والدرك يمنعونه عنا. أراظينا ساكنة مستريحة انجدونا قبل ان يفوت الوقت.

(حاشية رابعة من الجميع) الرجاء من سعادتكم ان لا تُطلعوا الوزير أسعد الشامي على العريظة وإلا بدّل الحق بالباطل.

(حـاشيـة خاصـة من كاتب العريظة سويلم النصر الله) كل ما جاء في هذه العريظة لست مسؤولاً عنه وحق النبي، إنه تنقيل من كل أهالي القرية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢٨ رجب ١٢٧٤ هجرية

ويـلي ذلـك مئـة وتسعـون بصـماً بالإبهـام مع خاتم المختار وإمضاء سويلم النصر الله.

---

* * ـ منشورة ضمن مجموعته «شتاء قاس آخر».

أسرة بعل

فارس زرزور*

(بعل ـ بعولة): تزوج.
(بعل ـ بعلا): دهن وفرق وبرم فلم يدر ما يصنع فهو بعل.
(باعل) القوم قوما: تزوج بعضهم الى بعض ـ المرأة اتخذت بعلا.
(تبعلت) المرأة: اطاعت بعلها.
(البعل): الزوج (مؤنث) بعلة. ج بعال.
(وبعولة) النخل يشرب بعروقه فيستغني عن السقي.

---

* ـ من كتاب الستينات. أعماله القصصية «حتى القطرة الأخيرة» «٤٢ راكباً ونصف» «لاهو كما هو» «غرفة للعامل وأمه». أعماله الروائية «حسن جبل» «اللااجتماعيون» «الأشقياء والسادة» «الخفاة وخفي حنين». دراسات: «معارك الحرية في سوريا».

وتين (بعل): معروف يأكله كل الناس في هذه الأيام، وهو أكثر حلاوة وأصغر حجماً من (تين السقي) (وأسرة بعل) موضوع هذه القصة: اسرة غير معروفة الا لدى جابي مؤسسة مياه الفيجة. وهي بعكس التين البعل أقل حلاوة وأكبر حجماً من (أسرة السقي) واذا شئتم تحديداً أكثر فهي أسرتي. وقد مضى عليها أسبوع تشرب من عروقها بلا ماء ولا ما يحزنون.

ولأحدثكم عن نفسي قليلاً أنا بعل هذه الاسرة، فأنا متقاعد برغم أنني لم اتجاوز الاربعين من عمري. وليس لي من عمل آخر استعين بدخله على تصريف شؤوني، وعلى هذا فأنا و(بعلتي) وأطفالي الخمسة نعيش على المعاش التقاعدي الذي عمل فيه عشرات موظفي المالية وغير المالية، واذابوا من أجله عشرات اقلام الرصاص، واستهلكوا الله أعلم كم من اطباق الورق، ليجعلوا هذا المعاش ضيقاً رفيعاً يدخل في «سم الخياط» وسم الخياط هو خرم الأبرة... ولا شك أن السلك الرفيع الذي يدخل في ثقب الابرة يضيع اذا وضع في ثقب أوسع. وجيب سترتي - كما هو معروف في كل جيوب الستر، واسعة وواسعة جداً، لأنه يضيع فيها آلاف الليرات. حسناً. لن أتحدث عن تصريف شؤوني بهذا المعاش ولأفعل كما يفعل العسكريون. أن أدخل بالموضوع مباشرة. طرق بابي في الاسبوع الماضي، وكنت أنا من تكفل بفتحه، وأنا أفتح الباب دائماً لأسباب عديدة، وثانياً لأني بت على مر الأيام انتظر طارقاً مجهولاً يحمل لي بشرى سارة، وهذه عادة سيئة جداً اتمنى ان يغفلها الناس من حسابهم، لأنها لا تعود على المرء بغير الخيبة والخسران، وخاصة في هذه الأزمنة الحديثة التي اتخذ منها «بول سارتر» عنواناً لجريدته. ولأعد الى قصتي:

طرق الباب، أو على الاصح قرع جرسه قرعة طبيعية، كما تقرع الأجراس الكهربائية في كل مكان، ولكن طبعاً مع اختلاف الاثر والفوارق الاخرى، فهناك جرس الموظف الكبير الذي يقرعه طلباً لفنجان قهوة، وهناك جرس المدرسة الذي يقرع مؤذناً بانتهاء الدرس أو ابتدائه، وهناك أجراس كهربائية تقرع في كل

مكـان، غير أن لبـاب بيتي جرساً غريباً، لطنينه وقع خاص، يحمل في بدايته لهفة كبيرة ما تلبث ان تتحول سريعاً الى ندم، ولكن ماذا يفعل الانسان الذي لا يعلم بالغيب والذي لا ينتظر أحداً ولكن أعماقه تنتظر كل شيء.

يبدو أنني أضعت الهدف مرة ثانية فإذا استمررت على هذا المنوال فستنتهي قصتي كما ينتهي «حـديث حشـاش». من أجل هذا علي ألا أهتم بالمعارك الجانبية كما يقول العسكريون والسياسيون أيضاً.

كان الطـارق، يحتضن محفظـة كبـيرة مملوءة بالكشوف، ولم الاحظ شكله، لأنه بادرني فوراً بهذه العبارة:

(عشـرين ليرة واثنـين وعشرين قرشاً ونصف)، وأنا أقبل أن يقال عني كل شيء الا أن يقـال أني مغفـل وذلـك.. المهم... فقـد عرفت أن هذا المبلغ ليس كسباً، بل خسـارة فلم يحدث في تاريخ البشرية ان تقدمت الدولة الى مواطن من مواطنيها المخلصين بمبلغ، مهما كان ضئيلاً، بمثل هذه العفوية والسهولة.

صحيـح أنهـا تحسب النقود على البارة، ولكنها لا تقدمها الا بطلوع الروح كما يقول المثل و.. ذلك اذا خطر لها يوماً أن تقدم شيئاً.

وكان طبيعياً أن أسأل الرجل، وهنا شملته عيناي بلمحة خاطفة، ولا أظن أن شكله يهم أحـداً، يكفي أن يكـون موظف مؤسسـة لها صفة حكومية، وقفت آماله كلها عند حد أن يأمر فيطاع. من أجل هذا كانت لهجته تحمل طابع التهديد والسيطرة. وسألته:

ـ حق أي شيء هذا المبلغ...

فرد في تغضن وفراغ صبر، وكأنه يقول (يا الله ما أبلدك) قال:

ـ ثمن ماء...

أنا أعرف أن زوجتي تحب النظافة، وانها وأطفالي يشربون كثيراً من الماء في هذه الأيـام الـلاهبـة. مستعيضـين بذلك عن شم الهواء، والخروج الى النزهات والاستجمام، ولكني ما كنت أظن أنهم يستهلكون في اليوم الواحد متراً مكعباً من

الماء، فهم يعرقون كثيراً ولا (يخرجون) إلا قليلاً، فضلاً عن أن مسافة قبونا الضيق الخالي من الحديقة، لا يحتاج لتنظيفه الى أكثر من خرقة مبتلة كانت يوماً ما بنطالا لي، ثم استعمل بالتدريج بنطالا قصيراً لأطفالي الاكبر فالاصغر فالاصغر. وكنت خلال تذكري هذه التفاصيل احسب ـ باعتبار أني مواطن صالح ـ ما تبقى معي من النقود لمصاريف أيام الشهر المتبقية، فعرفت أنها لا تكفي.

قلت للجابي:

ـ سأدفع أول الشهر...

وهنا بعق في وجهي مستشيطاً:

ـ اذن خذ هذا الانذار....

وأخذت الانذار. ومن سوء الحظ أن عشرة الايام مهلة الانذار كانت ستنقضي قبل انقضاء شهر آب،الذي كان واحداً وثلاثين يوماً،بيوم واحد. فكرت ساخراً (ترى اما كنت أسعد حالا لووجه الي هذا الانذار في شهر أيلول؟). وهكذا.. رحت انحو باللائمة على الأب الذي اخترع الاشهر الميلادية، والتي كانت لا يمكن احتمالها لولا شهر شباط الخفيف اللطيف في السنة غير الكبيسة خاصة. وحنقت على أن الدولة لا تستعمل الاشهر القمرية النظيفة الخالية من الذيول. الا في الاعياد والصيام وضرب المدافع و.. ثم حاولت أن أصب جام غضبي على زوجتي المسكينة برغم قناعتي ببرائتها من كل ذنب. ولكني خشيت من المضاعفات. فأنا اعترف بأني أحب هذه المرأة الصغيرة المقطمة المختصرة تقريباً، والتي، تعاني من مرض فقر الدم من جوع مزمن، وقد صنعت لي أطفالاً على منوالها نحيلين، مقددين، يكفيهم جميعاً متر من القماش ليكسوهم. ورغيف ليشبعهم وليتر ماء ليجلو عنهم أوساخ شهر كامل.

أقول الصراحة؟. وجدت أن دفع (عشرين ليرة واثنين وعشرين قرشاً ونصف القرش) يجعلني مغدوراً. وأنا لا أحب أن أسرق برغم أني لا أتعب في الحصول

على نقودي القليلة المحسوبة على البارة كما أسلفت. ولعل هذه الطريقة السهلة في حصولي على المعاش كانت تجعلني ـ على العكس ـ أحس نحوها بعاطفة خاصة لايحس بها ذاك الذي ينحت الصخر طوال يوم ليحصل على جزء منها، قلت في نفسي وأنا الفارغ من العمل، لماذا لا أراجع الدائرة علّ هناك خطأ في الكشف على العداد، ومثل أبي عقل وعقلين، اسقطت نصف جسدي السفلي في بنطالي الواسع، وأدخلت نصفه العلوي في قميص امتص عرقي طوال اسبوعين، وانتعلت حذائي الذي كان زبوناً موسمياً لاسكافي شارعنا، وخرجت مشيعاً بدعوات قلبية صادقة صادرة من قلب بعلتي المصون.

أنا لا أنكر بأني انسان مهذب، طيب القلب، وأملك معنويات لابأس بها، واعرف أحياناً كيف أتحدث وأدافع عن قضيتي، وأعرف كيف أخاطب الموظفين وخاصة من هم ذو مكانة، فقد كنت موظفاً يوماً ما خدوماً مطيعاً، وأتمتع بكرامة ولكن الظروف الـ.. أعود بالله من الشيطان الرجيم. المهم: تقدمت الى موظف الشكايات في تحبب، وبثقت من قلبي الجاف ابتسامة مسحت بها شفتي المحترقتين، صحيح أن شفتي انفرجتا عن أسنان صفراء نخرة من فرط التدخين، ولثة متورمة مصابة بمرض (البيوريا) ولكنها كانت ابتسامة نقية على كل حال، لم تكن ابتسامة خالصة لوجه الله ولكن من الصعب تفسيرها. وأنا أعترف بأن لحيتي كانت طويلة عمرها حوالي أسبوع. وان شعري كان منكوشاً، ولكن ما أهمية ذلك في قضية خارجة عن نطاق الجمال واللياقة واختيار وجوه للعرض، وأنا أيضاً لم أكن أطلب عملاً، كنت في السنوات الخمس الماضية عندما أقوم بهذه المهمة أعد للأمر عدته. فلا أتقدم من الأرباب والمسؤولين إلا وأنا على «السنتيم» كما يقولون، وبالتالي ماذا أفعل لسحنتي المنفرة اذا كانت الظروف الـ.. اعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

وقفت أشرح للموظف قضيتي، أوعلى الارجح مصيبتي، فقد راحت

المسألة تتضخم في عقلي حتى وصلت الى الموظف المذكور فأضحت مصيبة حقيقية . . .

يقول المثل «ويل الشجي من الخلي» صحيح ، ففيما كنت أضع كل أريحيتي وفصاحتي في شرح المشكلة الوجدانية التي كنت أعانيها ، وأنا أتحدث في حرارة وشعور بالضيم ، كان موظف دائرة الجباية منشغلاً عني في تصفح مجلة نسائية أو رجالية لا أدري . فقد لمحت جسد امرأة عارية ، لا انكر انها كانت تستحق الاعتبار ، وقد جنح خيالي مرات عديدة ـ وأنا اتحدث عن الكشف والقبو وكل هذه الأشياء الى أمور اخرى لا مجال لذكرها الآن ، ولكني في الوقت نفسه كنت حانقاً أشد الحنق لأن الموظف لم يتكرم بالنظر إلي ، كان يهز رأسه فقط ، أعترف بأني عذرته ، وقلت في نفسي ، ربما هو يفهم جيداً ويسمع ما أقول ولا حاجة به الى الاستعاضة بوجهي عن التملي والارتواء من هذا الجسد الالهي الذي كان بحق يسيل اللعاب . . وتنبه الشاب أخيراً الى أنني كنت أقف أمامه صامتاً ، وقد تنبهت أنا أيضاً الى ذلك ، فعرفت بأني عرضت له المشكلة كلها بالدقة والتفصيل ، وهنا رفع رأسه وقال لي في سرعة غريبة «قدم طلباً» وسمعته ينهرني :

ـ أين عقلك . . .

وتبسم ، كان عقلي بصراحة في المرأة العارية المستلقية على عشب ندي . ماذا أفعل اذا كانت مشاعري وخيالي قد انجذبت اليها . وتذكرت زوجتي الدقيقة الحجم ، و . . لا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

قلت لبائع الطوابع ، أعطني ببقية الليرة هذه المجلة ، كذبت على نفسي ، «سأسند عليها ورقة الطلب» .

الى مدير مؤسسة . . يعرض مقدمه فلان . . أنه بتاريخ . أذكر بأني كنت

أكتب كلمة وافتح على الجسد العاري، ثم ما ألبث أن أقنع نفسي (ستجد وقتاً طويلاً للتمتع) وبعد أكثر من ساعة ناولته ورقة الطلب، لاحظت بأن أصابعي كانت ترتجف. وراح الموظف يقرأ، ثم رفع رأسه قائلاً:

ـ شاكر بلوط؟

وهززت رأسي بفخر. قال لي:

ـ ماذا يقرب علي شلحوط؟

ـ قلت له:

ـ أنا بلوط...

فخرزني نظرة ثاقبة. وخطرت لي فكرة، لربما كان يعرفه، فسأستفيد من ذلك.. سألته بشيء من الخزي. خشيت أن يدرك كذبي:

ـ شلحوط..

قال:

ـ أيوه.. علي شلحوط..

وتصنعت التفكير.. ورددت بلهجة خائرة:

ـ أظن أنه من العائلة...

قال لي آمراً:

ـ اذا رأيته قل له أن يمر علي..

قلت له:

ـ طيب...

ـ ان لي معه نقوداً..

وهنا هبط قلبي «لعنة الله على هذه المعرفة». وتابع الموظف:

ـ شو صار بينه وبين زوجته..

قلت بلا تردد:

ـ طلقها..

وانتفض الشاب جاحظ العينين :

ـ طلقها؟

وهززت رأسي ايجاباً.

ـ أكيد . ؟

ـ أكيد . .

ـ والله لأخرب بيته . . لعب على أختي . . و . . .

ونفذ الانذار . . لا أدري ما حدث لطلبي . . الارجح أنه وصل الى المصدر المسؤول . أنا أدرك بأن الموظف اذا كان له ثأر عند (شلحوط) فإنه لن يستفيد من ورقتي ذات الطابع بخمسة وأربعين قرشاً، والتي أشرح بها قضية تتعلق بثمن مياه مستحق خطأ . لقد وصل طلبي الى أعلى مصدر بالمؤسسة حتماً لأن الماء قطع عني في اليوم التالي، أي قبل انقضاء مهلة الانذار باسبوع . وأنا الآن في غرفتي أتصفح المجلة العارية بعيداً عن زوجتي . صوت ابني يسأل الجيران «تقول لكم ماما أعطونا مي» ثم قرقعة سطل فارغ «أسرة بعل» أسرتي تستقي من عروقها . ستجف هذه العروق يوماً . . قبل أن يأتي أيلول . .

التقرير

وليد اخلاصي*

قال الرجل لطلابه الصغار الذين اختفت بطونهم وراء مقاعد الدراسة :

ـ درس الكيمياء لهذا اليوم يتعلق بالنقاط التالية : التجزئة ـ التحلل ـ والضياع .

ثم لوح بأنبوبة زجاجية طويلة تظهر بداخلها سائلاً لا لون له ، فاشرأبت الأعناق إليه يحرك الأنبوبة في الهواء وكأنه يلوح لعيونهم المندهشة بمفاجأة مثيرة .

قال طالب صغير الحجم يحمل على شفتيه كتلة مختصرة من الشعر الخشن :

---

* ـ من كتاب الستينات . أعماله القصصية «دماء في الصبح الأغبر» «زمن الهجرات القصيرة» «الطين» «الدهشة في العيون القاسية» «التقرير» «موت الحلزون» «يا شجرة يا . . .» «الأعشاب السوداء» «خان الورد» . ←

ـ لم نفهم شيئاً.

فسرت همهمة متماوجة بين صفوف الطلاب، ادت بالمعلم بعد لحظات أن يدرك الجهل المطبق الذي خيم على الرؤوس كأعلام الأفراح.

«أما من الناحية اللغوية يا أبنائي فالأمر واضح، بقيت الناحية العلمية.. انظروا، انظروا وستجدون تفسيراً لكل شيء».

فتحركت العيون إلى أعلى تكاد تلتصق بسقف الرأس، فيما كانت طبقة زيتية تطفو لتتجمع على سطح السائل، ثم، برجّة خفيفة من يد المعلم، جعلت أبخرة بيضاء تتصاعد من فوهة الأنبوبة لتنعقد غمائم داكنة متفرقة في سماء الغرفة.

«افتحوا عيونكم جيدا يا أبنائي».

ولكن احداً من الطلاب لم يستطع ان يفتح عينيه، فالدخان كان على ما يبدو يحرق العيون.

ـ الدنيا عتمة ونحن لا نستطيع ان نرى سوى ظلام أسود رطب.

صاح طالب من خلال الضباب الكثيف.

«افتحوا عيونكم جيداً يا أبنائي».

ومع ان اكثر من واحد من الجالسين قد بذل جهداً مضنياً في تحريك جفنيه، لكن النجاح لم يصب أياً منهم.

ـ لقد عميت تماماً.. فأنا لا أميز شيئاً.

صرخ طالب نما جسده بفحولة فيما يهب واقفاً كالمسعور:

← أعماله الروائية «شتاء البحر اليابس» «أحضان السيدة الجميلة» «احزان الرماد» «الحنظل الأليف» «زهرة الصندل» «بيت الخلد» «حكايات الهدهد» «باب الجمر».

أعماله المسرحية «العالم من قبل ومن بعد» «الصراط» «سبعة أصوات خشنة» «هذا النهر المجنون» «أوديب» «عن قتل العصافير» «قطعة وطن على شاطىء قديم» «أغنيات للممثل الوحيد» «مسرحيتان للفرجة».

«افتحوا عيونكم جيداً يا أبنائي».

ولكن أصوات الاحتجاج هجمت كالغبار على نداء المعلم فلم تعد كلماته تسمع في زحام الآهات المخنوقة. بعد قليل صاح المعلم بصوت كالرعد:

«افتحوا عيونكم.. لقد انتهى كل شيء».

وكان الضباب الذي خيم على المكان قد انقشع حالما دوى صوت المعلم، فانفتحت العيون المغلقة ليتحسسها الطلاب بين مكذب ومشكك، فإذا بات المنظر واضحاً، تطلع الجميع إلى الأنبوبة فكانت فارغة.

«أين ذهب السائل؟».

«إذن تبخر السائل؟».

«برجة أو رجتين يطير السائل؟».

«هذا سحر!..

«لم نفهم شيئاً!».

«كنت كالنائم!».

«لقد نمنا فعلاً!».

وفيما كانت التعليقات التي اطلقها الطلاب تتشابك مع ابتسامة المعلم العارفة وقف شاب صغير الرأس وتساءل بهدوء بارد:

ـ وما علاقة التجزئة وما اليها بما رأيناه؟

وقبل ان تتحرك شفتا المعلم بالإجابة، اكمل الشاب الصغير الرأس:

ـ هذا عمل سياسي وليس بدرس كيمياء.

ـ سياسي؟ ما هو السياسي..

كانت ساحة المدرسة تردد اصوات النفير التي تعالت في الجو، لتقطع خيوط التحفز التي بناها عنكبوت القلق النزق. تفرق الطلاب من صفوفهم وبقيت عينا الشاب الصغير الرأس توازيان عيني المعلم، وفيما جرفت حركة الطلاب معها توثب الشاب، احس المعلم بالراحة فأسرع بالخروج.

«لم يكن للدرس علاقة بالسياسة، ولن تخيفني تهديدات الشاب المبطنة، ولكن من يدري فقد يقدم تقريراً مزيفاً يحمله ما لم أقله. الدرس كان واضحاً: التجزئة ـ التحلل ـ الضياع، وقد أثبّت تلك الصفات الكيميائية بالواقعة الملموسة».

في البيت انفرد بنفسه في الغرفة المستطيلة الضيقة، وبينما استلقت زوجته متعبة في سريرها وقد داخلها اليأس من دعوته إليها، ظل هو يفكر ويقلب في الأمر، فإذا الأمر له مائة وجه. قال لنفسه بعد تعب:

ما دام الموضوع قد يصل إلى هذا الحد، فالأفضل لك ان تهيء نفسك لاستجواب طويل وعريض. قد يسألونك عن الماضي، بل قد يمتد الأمر إلى أدق التفصيلات، قد تكون غرفة الاستجواب باردة رطبة ولن تتوفر فيها الراحة. اكتب تقريرك هنا ومن خلف مكتبك النظيف، وتستطيع ان تشرب القهوة متى تشاء.

ابتسم المعلم فيما يكدس امامه الأوراق البيضاء، فقد تخيل وجوههم تتطلع إليه فيما يخرج التقرير امام وجوههم وقد ضم بين سطوره اجابات لكل ما يمكن ان يخطر في بال أي منهم.

«اسمك؟».

«تجده يا سيدي في رأس الصفحة على اليمين، ووفقاً للبطاقة الشخصية تماماً، وفي السطر الثاني هناك محل الإقامة، وانا من مواليد عام ١٩٣٥، ولا اذكر ان احداً من العظماء او المفكرين او العلماء قد ولد في ذلك العام، ووفقاً لمعلوماتي المتواضعة يا سيدي فان الـ د. د. ت لم يكن قد اكتشف بعد، وان تكن مركبات الكبريت قد وصلت أوج استعمالها في تلك الحقبة من الزمن، فانا ما زلت اذكر ان اهلي دهنوا به جسدي من الكعبين وحتى الرقبة للقضاء على الجرب الذي انتشر كالوباء في سنيّ الحرب الكونية الأخيرة، والسبب يا سيدي هو ارتفاع اسعار الصابون آنذاك».

توقف المعلم عن الكتابة، قال لنفسه فيما يحاسبها:

ـ هذا استطراد لا داعي له.

ـ ولكن من يدري فقد تكون تلك التفصيلات ضرورية، فهم عادة يطلبون تقريراً ضافياً وشاملاً مانعاً.

ـ قد يسخرون منك.

ـ ولكن من يخفي جانباً من الحقيقة كمن يخفي الحقيقة كلها.

ـ ما دام التقرير سيجيب على كل الأسئلة، فانه من المفروض ان تتوقع الإجابة على أي سؤال قد يطرح عليك.

«ولأكثر من سبب واحد فقد درست الكيمياء. لأنني احب مهنة التدريس أولاً، ولأن العرب كانوا يطمحون إلى تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة، ومع ان المنفلوطي الذي أحببته في صباي لم يقترب من سيرة الكيمياء فقد درستها، وهكذا ترى يا سيدي ان ميولي لم تكن سياسية في يوم من الأيام، كان هناك المنفلوطي كما ذكرت وجبران وأرسين لوبين وأسماء أخرى لا علاقة لها بالسياسة، وتستطيع ان تستوثق من زملائي في المدرسة الثانوية، ففي عام ١٩٤٨ لم اشترك في المظاهرة الكبرى التي خرجنا، اقصد، التي خرج بها الطلاب، إلى الشوارع ينادون بالهجوم على اليهود المعتدين. قُتل طالبان ولم أحزن عليهما لأنهما لم يكونا من رفاقي الخلص. أنا رجل افكر علمياً، أؤمن بالمعادلات، حمض كلور الماء يعني تفاعل الهيدروجين مع الكلور، وهذا هو كل شيء، لذا فأنا لا أستغل دروسي في المدرسة ولا أتكلم في السياسة، هذا ليس من شأني.

حياتي مستقيمة، ولكنني لا أنكر ما فعلت من أشياء صغيرة لا تشير إلى الاستقامة، سأذكر لك حادثة لأدلل على صدقي وشجاعتي الأدبية، غازلت زوجة جارنا العجوز، كانت صبية وأنا فتى، ولا أنكر أني نمت معها. أرأيت.. ارأيت؟

أريد هنا ان اصحح لك بعض المعلومات التي سردتها من قبل، فأنا اشتركت في مظاهرة ١٩٤٨ ولكنني لم أكن في المقدمة، فالصغار كانوا يهللون في

المؤخرة فحسب، وقد أجمع جميع الكتاب والمؤرخين على ان تلك التظاهرات لم تكن سياسية، وهذا دليل جديد على شجاعتي الأدبية وانتفاء عملي السياسي المبطن.

يقولون إن السياسية مثل الكيمياء، ولكنني أقسم لك أن الكيمياء ليست كالسياسة. تأكد من ذلك إذا شئت وارجع إلى الكتب وإلى محاضرات الجامعة..».

كانت الساعة تشير إلى ان منتصف الليل قد اقترب، فتأمل المعلم نفسه في زجاج النافذة. اختلطت صورته بانعكاسات أنوار الشارع الهزيلة. تمطى ولكنه أحس برغبة متجددة في معاودة الكتابة.

ـ إنها فرصة لقول كل شيء، فالصدق الكامل خير طريق للنجاة.

كان يتمتم لنفسه فيما يكتب سطرين، ولكنه سرعان ما مرر قلمه على الكلمات بقسوة. لم يشأ ان يتحدث، ولو بالإشارة، عن علاقته الفاشلة بالصبية الحلوة أخت رئيس الطلاب الذي كان مسؤولاً مباشراً ذات يوم عن التظاهرات التي قامت تطالب بتأميم شركات الكهرباء والمياه والدخان. واضطر من أجل ذلك التخطي ان يعيد كتابة الصفحة بكاملها مجدداً حتى لا تظهر تلك الكلمات السوداء كدليل على التردد.

«وكانت الاضطرابات التي سبقت ورافقت الأحداث التي اشتعلت عام ١٩٥٦، كانت كالجائحة، ولكنني تفاديتها بانهماكي الكامل في دروسي الجامعية. أنا لم أكن متفوقاً في الدراسة ولكنني هيأت نفسي للخلاص من الجامعة بأسرع ما يمكن ياسيدي، فالطقس هناك كان ملبداً بالغيوم بشكل لا نظير له، وأنا رجل علمي لا آبه للسياسة فهي مضرّة، وكثيراً ماأودت بمستقبل الشباب: طرد من الجامعة أو اعتقال مع تعذيب يعطل أحد الأعضاء. ألا ترى يا سيدي ان تفكيري كان سليماً ولا يمكن له ان يساعد على تصديق تلك الوشاية، فدرسي البارحة

كان يتعلق بصلب الكيمياء. ألا تعتقد معي، ان التجزئة تؤدي حتماً إلى الانحلال فالضياع، فما دخل السياسة في كل ذلك؟

هنا لا بد لي من الاشارة بأمانة إلى أنني اضطررت لأسباب نسائية بحتة إلى حضور مؤتمرين او اكثر كان بعض الطلاب قد دعى إليهما لنصرة بعض القضايا الهامة كاستعادة اللواء السليب وشجب العدوان على غزة وقنال السويس وما إليها من مواضيع اجتماعية بحتة لا علاقة لها بالسياسة، وأقسم لك على أن حضوري لم يغير أو يبدل كما ان عدم حضوري لم يكن يثير قضية، كما أنني لم أعلق بكلمة او نصف كلمة ولم أصفق أو أهلل، كان حضوري موضوعياً ويتسم بما يتناسب وهيبة الكيمياء من هدوء وعدم تحيز.

أنا أعلم ان الذي تقدم بالتقرير المتعسف ضدي، سبق وان نال علامات متدنية في فحوص منتصف السنة، لذا فان اجراءه هذا يعتبر ضغينة غير موضوعية وانا هنا لا أدافع عن نفسي بقدر ما أدافع عن الأمانة العلمية في تقويم الأحداث والأقوال. صحيح ان كلمة التجزئة قد استعملت في القاموس اليومي للسياسة، ولكن ماذنب الكيمياء إذا اضطرت احياناً إلى استخدام كلمات مشابهة لتلك التي تستعمل في الحياة اليومية. خذ الضياع مثلا، انها كلمة تستخدم في القاموس النفسي والاجتماعي اكثر مما تستخدم في القاموس السياسي، فما ذنبي انا عندما استخدم تلك الكلمة للتعبير عن تلاشي المواد؟

لقد غرقت آذاننا بعد حرب ١٩٦٧ في بحر الكلمات، خسارة.. هزيمة.. نكسة.. ضياع، وفي الكيمياء أيضاً هناك خسارة وهناك هزيمة، خذ مثلاً بعض المواد عندما تخسر ذرة من ذرات تكوينها الأساسية، فانها تصاب بهزيمة تؤدي بها إلى التحول أو إلى الضياع. انها أمور عجيبة يا سيدي تلك العمليات الكيميائية! ارتفاع في الحرارة يؤدي إلى تفسخ المواد العضوية، تغير في الظروف الموضوعية يتسبب في خمول مادة ما، والخمول كثيراً ما يؤدي إلى الشلل او الموت.

هاك دليلاً جديداً على حيادي وعدم استغلالي لحصة الدرس في استخدام السياسة:

أنا يا سيدي لم أشكك في الوضع القائم بعد معركة حزيران، إلا انني لا انكر حزني آنذاك. صحيح انني دخلت إلى درسي ممتقع الوجه منهوك القوى احس كمن فجع بعزيز لديه، ولكن حزني هذا لم يؤثر في مجريات الأمور، فلم أشعر الطلاب بما يدور في داخلي خوف التأويل أو التفسير بانني حولت الكيمياء إلى تثبيط او احباط، ولكن طالباً ذكياً سألني آنذاك:

ـ ما هو الحل عندما يخسر الانسان معركة؟

فأجبته متمالكاً أعصابي:

ـ الخسارة ظاهرة زمنية يا بني، وكل ما هو زمني يمكن ان يتحول.

فقال بأسى لن أنساه مدى عمري:

ـ هل يمكن للخسارة ان تتحول إلى خسارة والخسارة إلى هزيمة والهزيمة هل يمكن ان تبقى مقيمة؟

فأجبته بمرح مصطنع:

ـ إنك تخالف قوانين الطبيعة، فالأشياء لا يمكن أن تبقى على ما هي عليه ما دام هناك تقلب في الظروف المحيطة بها.

بعد يومين قال نفس الطالب:

ـ هل يمكن للانسان ان يكره وطنه؟

ـ ولماذا؟

فلم استمع إلى تعليقه لأنني بدأت آنذاك في تسطير معادلاتي العضوية على السبورة السوداء، وساد سكون. ولا أنكر يا سيدي أني تساءلت في سري، دون أن يعلم أحد بما يدور في أعماقي، هل يمكن للانسان ألا يحب وطنه؟ هل يمكن للانسان ان يتنكر لحب الوطن؟ انها مشكلة، أليس كذلك يا سيدي!

لا أريد ان اكون واشياً فالوشاية أمر ينافي طبيعة الكيمياء، ولكنني ياسيدي

سمعت أكثر من شخص يتغنى بقوة الأعداء، بل تعدى الأمر ذلك، فهناك من قال لو أن الأعداء حكموا هذه الأرض إذن لاستتب الأمن وراجت التجارة وتحسنت الأحوال.

إنني رغم كل شيء لا أعنى في حياتي سوى بالعلم والمعادلات ولكن اعترف بأنني شجعت ذات مرة لجنة لجمع التبرعات دخلت حصتي فلم اعترض، وكان سكوتي تشجيعاً لهم، وتكلم رئيس اللجنة يحث الطلاب على دفع ما يملكون من أجل الفدائيين فهل كان الأمر سياسة؟ لا أعتقد يا سيدي واذا كان الأمر كذلك فإنني اعترف بخطئي وأعد بألا يتكرر تشجيعي لجمع التبرعات حتى لا يقال إني خرجت عن موضوعيتي.

انني رب أسرة كبيرة، ثلاثة أطفال وزوجة وعمة عجوز، لذا فأنا لا أحب المغامرة، ولهذا السبب فقدت طموحي، فأنا لا أحب ان اكون مديراً للمدرسة او للتربية، ومع ان عدداً لا يستهان به من زملائي قد اصاب من طموحه فنال مراكز ذات قيمة، إلا انني لا احب المغامرة، أفلا يؤكد انضباطي هذا عدم تدخلي في السياسة.

ان علماً كالكيمياء لا يمكن له ان يفسح المجال أمام التكهنات او التوريات، انه كالرياضيات والفيزياء، علوم موضوعية وحيادية، ولكنني لا أنكر انه بالإمكان استغلال بعض طرائقها للخوض في مواضيع مختلفة، فأنا شخصياً استخدم احياناً بعض المعادلات مع أهلي واصدقائي، لمجرد التسلية يا سيدي، واذا أردت ضربت لك مثلاً، خذ هذه المعادلات:

بيت + حب ← سعادة

وعود + كذب ← خيبة أمل

وطن + حب ← أرض بلا قيمة

أرض بلا قيمة + لا مبالاة ← احتلال

وهكـذا يمكن للكيميـاء ان تكـون مجالاً للتسلية . صحيح ان هناك بعض الاصطـلاحـات كالـوطن والاحتـلال تمت بصلة وثيقة إلى قاموس السياسة ولكن اللغة واسعة ، وعيب اللغة العربية يا سيدي أنها حمالة أوجه ، فما ذنبي أنا؟ واذا كنا سنحـاسَبُ على مرونـة لغتنـا فالأجـدر بالقوانين ان تحدد أنواع الاستعمالات لهذه اللغـة الـواسعـة الأرجـاء ، وهنـا يمكن القول ان حسن النية هو الذي يفصل بين المعاني المتعددة للكلمة الواحدة ، وانا حَسَنُ النية كما يشهد لي الجميع ، لذا أطالب برد جميـع أقـوال الطـالب الـذي ادعى أني أستغـل درس الكيميـاء للتحـدث في السيـاسـة . وبنـاء على كل ما تقـدم فانني أطالب ببراءتي من التهمة المنسوبة إلي وللبيان حرر» .

ولما كان الفجر قد لاح بنوره فقد قرر المعلم ألا يستسلم للنوم العادي الذي يلجأ إليـه الانسـان في كل ليلة بصـورة آلية . طوى التقرير من منتصفه ووضعه في ظرف ووضع الظرف في كتاب مبادىء الكيمياء ، وبعد القهوة المنشطة ارتدى ثيابه وتـوجـه إلى ذاك المبنى القـديم الـذي يقع عند مفترق شارعين مزدحمين . وعندما أطل عليه موظف الاستعلامات بتثاؤب طويل قال المعلم بتأدب :

ـ أنا فلان الفلاني ، هل المدير موجود؟

ومـا ان استمـع المـوظف الى اسم المعلم حتى استـوى في قفصه الزجاجي واقفاً وقال بخبث واضح :

ـ اعتقد انهم ينتظرونك فوق . .

فشكـره المعلم ، وتـوجـه بثقـة كبيرة إلى الطابق الأعلى ، وقد تردد في ذهنه تساؤل لم يجد له جواباً :

ـ كيف عرفوا أني سأحضر؟

---

* ـ من مجموعته «التقرير» ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٤ .

جماعة المدير

محمد نور قطيع*

حدث هذا منذ سنين، كنت آنذاك حديث العهد بالوظيفة، بل كان أول عهدي بها على وجه التحديد، حينما عُيِّنْتُ موظفاً في محافظة ناثية، وكان للوظيفة في نفسي وقع وسلطان يتمثلان في الرؤ ساء والمديرين خصوصاً، لكثرة ما سمعت عنهم من قصص وروايات تجمع بين المدح والقدح، وما كان يبذله الناس من جهد لاسترضائهم والتقرب منهم بغية تسيير قضاياهم ومصالحهم. وما زودني به الأصدقاء والأهل من نصائح قبل التحاقي بالعمل تدور كلها حول ضرورة كسب ود هؤلاء الرؤ ساء، الذين في يدهم مفاتيح أموري وما يعود عليّ بالتقدم أو التأخر

---

* - ظهر اسمه في مطلع الستينات. توقف عن الكتابة طويلاً ثم عاودها في أواخر الثمانينات. القصة المنشورة هنا نشرت في العدد ١٢٠ من صحيفة الأسبوع الأدبي ١٩٨٨.

في المستقبل، سيما انني كنت ما أزال موظفاً متمرناً، فبجرة قلم من أحد هؤلاء يمكن ان اصبح في خبر كان.

بهذه المشاعر قابلت مديري للمرة الأولى، فأكدها لي من جهته عندما قال لي دون ان ينظر نحوي بعدما قدمت له نفسي إن عملي سيكون في الشعبة (الفلانية)، ورئيس الشعبة من ناحيته أمرني دون مقدمات بأن أجلس وراء هذه الطاولة، وأبلغني بجفاء لم أفهم مسوغه ان رئيسي المباشر هو: الأستاذ توفيق.

ولم تكن تلك فاتحة خير بالنسبة إلي، فالـ (توفيق) هو الشيء الوحيد الذي لم أصادفه في حياتي قط.

اكتفى الأستاذ توفيق بالقاء نظرة موجزة علي، وقدم لي على الفور بعض الأوراق وطلب مني نسخها بدقة وبخط واضح، مشيراً إلى انه يمكنني الاستعانة بأي من الزملاء الأربعة الموجودين معي في الغرفة في حال وقوع التباس أو غموض، باعتبارهم أقدم مني في العمل.

حرك هذا الإطراء العَرَضي مشاعر اولئك الزملاء فنفخوا أوداجهم، وتنهدوا بتعب مصطنع يخالطه ارتياح ضمني، القصد منه إشعار رئيس الشعبة بوقوع عبء إضافي على كواهلهم المثقلة سلفاً، حيث سيضطرون إلى تدريب موظف غر جاهل. واما احساسهم بالارتياح فكان يعود إلى ذلك الإحساس بالسلطة الذي سيتقاسمونه بحسب أقدميتهم على هذا المرؤوس الجديد الذي لم يكن سواي.

ومر اليوم الأول عصيباً وأنا أحاول تجنب الوقوع في خطأ مهما يكن طفيفاً؛ فلم أتحرك إلا بما يسمح به المقام، ولم اتحدث إلا في اخص خصوصيات العمل، هذا إذا تحدثت؛ فقد حصل ذلك على نحو نادر للغاية، محاولاً التكيف مع هؤلاء الذين خيل إلي أنهم من صنف فريد من البشر، وإلا ما كانوا حُكموا برقاب العباد.

لكن ما كادت تمضي فترة قصيرة من الزمن حتى اكتشفت حقيقتهم.. فهم ليسوا سوى أناس تعبانين مثلي، يأتون إلى الدائرة متأخرين، وينصرفون مبكرين،

ولـديهم هوايـات كثيرة لا يدخل العمل في نطاقها، يسهرون في المقاهي ويلعبون الطرنيب عن (الشكلة)، ويقترضون من الأذنة، ولهم علاقات وطيدة مع مصرف التسليف الشعبي، وينهـار جبروتهم وسلطـانهم في أواخـر الشهـر أمـام السـمان والقصـاب والقهـواتي وآخـرين سواهم تربطهم بهم علاقـات أخـذ ورد من نوع خاص للغاية.

وشيئاً فشيئاً زالت الكلفـة بيني وبينهم، واتقنت أسـاليبهم في التهرب من العمـل والتغيب عن الـدائـرة لأسبـاب مبررة جداً. . . ، وأدخلت انـا على هذه الأسـاليب تحسينـات جديـدة تتـلاءم وروح العصـر، تقبلوهـا مني باعجاب فتح شهيتهم على الإبـداع والابتكـار. وزالت من نفسي رهبـة الـوظيفـة، واصبحت عنـدي شيئـاً محبباً، إذ ليس ألذ على النفس من تغييب الشموس وقبض الفلوس التي كانت قِلّتُها هي المأخذ الوحيد الذي لي عليها في ذلك الحين.

وسـارت الأحـوال على ذلك المنوال إلى ان جاء يوم شعرت فيه بحركة غير عادية في الدائرة، واحسـست بان ثمة ترتيبات معينة تتخذ: فأحد من الموظفين لم يتحرك من مكتبه لعشر دقائق بطولها، والأذنون منهمكون في شطف الدائرة وترتيب أثـاثهـا، ورؤ سـاء الشعب اخذوا على عاتقهم ترتيب الأوراق والمراجع على نحو يجعل استخدامها ميسوراً عند الضرورة.

وسـرعـان ما عرفت ان السـيـد المحـافـظ سيحضر في زيارة تفقدية، فبذلت جهداً سريعاً للتكيف مع هذا الوضع الطارىء، . . . استعرت عدداً من الأضابير التي ليس لي علاقـة بها من أي نوع كان من الـزملاء، وكدستها على طاولتي حتى كادت تحجبني عن العيون، وفتحت امامي كومة من الأوراق التي لم يكن ليقدر لها الفتح لولا ذلك، واشعلت سيجارة وتجاهلتها متعمداً حتى تحولت إلى قضيب من الرماد، وحرصت على ان تبقى ريشتي رطبة مبللة بالحبر، ورحت أكتب هنا وأوقع هنـاك بحـركـة دائبة لا تعرف الكلل، . . . ولا ادري كيف استطعت الايحاء إلى جسمي بان يفرز المزيد من العرق رغم برودة الجو في ذلك اليوم.

وجاء السيد المحافظ، وسُرَّ مما رأى، وأثنى علينا متمنياً ان يستمر العمل على ما هو عليه، الأمر الذي من شأنه تحقيق رفع سوية الإنتاج. . فأومأت الرؤوس بالموافقة والتأكيد، وانصرف الرجل ومرت زيارته بسلام. . أما نحن فقد أمضينا تالي اليوم في ازالة آثار الشوشرة المفتعلة التي سببتها الزيارة غير المتوقعة تلك.

يوم آخر: شعرت بالحركة غير العادية نفسها، لكنها اليوم أكبر وأهم. ولم تكن بي حاجة هذه المرة للسؤال عن الوافد الجديد، فإذا كان في المرة السابقة المحافظ، فهو الآن الوزير بذاته! ازددت احساساً بهذا الشعور حينما شاهدت الآذن (أبو أمين) مغادراً غرفة المدير والغليون ليس في فمه، فقد اعتدنا على وجود الغليون في فمه وكأنه قطعة من وجهه. . وكانت تلك اللفتة منه صحيحة تماماً، فليس من اللباقة تدخين الغليون في حضرة الوزير.

اتخذتُ الترتيبات المعهودة فوراً، وتبسمرتُ وراء طاولتي منتظراً فرج الله، ولاحظت الآذن يومىء بين الحين والآخر لأحد الموظفين فيخرج هذا لدقائق، ثم يعود إلى غرفته واجماً متكدراً وكأنه أكل بهدلة من تحت الدست، ففهمت ان المدير يستدعي كل موظف على حدة ليقدمه للوزير، الذي لا بد كان يوجه إليه بعض الأسئلة المربكة.

. . وحانت اللحظة الفاصلة. جاء الآذن ليومىء إليّ الايماءة نفسها، ويخبر بي على باب الغرفة، همساً، ان المدير يريدني. شعرت بشيء من الحرج، اذ لم اكن قد تعرضت لمقابلة الوزراء من قبل، فقرأت آية الكرسي والصمدية الشريفة، واستجمعت أطراف شجاعتي، وطرقت الباب بأدب جم، وولجت إلى الداخل لأفاجأ بما لم يكن بالحسبان، حيث وجدت المدير قد تنحى عن مكتبه ليحتله شخص آخر لا يمت إلى الوزير بصلة؛ فأنا أعرف الوزير جيداً، فقد كنت شاهدته كثيراً على شاشة التلفزيون وفي الصحف. . وحتى لو كنت لا أعرفه، لا يمكن ان يكون ذلك الرجل الذي يرتدي قنباز وينتعل جاروخاً ويعتمر عقالاً. .

هو الـوزيـر في حال من الأحوال. ووجدت الطاولة امامه مفروشة بأكواب العصير الفـارغـة وأعقـاب السجـائر المذهبة، ودفتر الذمة ايضاً كان أمامه. سألني الرجل بلهجـة الآمـر عن مصـير المعاملة رقم.. تاريخ.. التي استلمتها أنا كما يظهر من توقيـعـي. فاختلط علي الأمـر وارتبتُ في أمـر هذا المخلوق الـذي يمارس هذه الصلاحيات، فأخبرته بواقع الحال، فقال:

ـ ما في مانع، لكنها يجب ان تكون جاهزة غداً صباحاً.. مع السلامة!

ولم ينس المـديـر التأكيـد على كلامه وخرجتُ مشدوها، وسألت الآذن (أبو أمين) عن الرجل، هل انه الوزير متنكراً؟

فأجـابني باستغـراب: يعني أنت. لا تعـرفه؟ قلت: لا. قال: بذمتك لا تعـرفـه؟ قلت: أقسم بالله العظيم لا أعـرفـه.. فقـال: يا رجل، هذا أبو قدور! قلت: ومن يكون أبو قدور بلا صغرة؟ فقال: هذا من جماعة المدير!

فأفلتت مني دون مقاومة لفظة (طز).. ومشيت، لكن ليس إلى غرفتي.

شباط ١٩٦٦

موت البلياتشو

وليد معماري*

أخرجت درية المطلي منديلها، ولوحت به قبل ان تمسح أنفها، وأعلنت ان قطتها اختفت.

اسم القطة: جوهرة، ولم يكن الاسم يتردد للمرة الأولى في مثل هذه الجلسة، فلطالما روت درية أحاديث، منها المفرح، ومنها المحزن عن قطتها الأثيرة تلك.. كان صوتها، وهي تعلن الخبر، يكاد يصل حد البكاء.. بالأحرى كان يحتاج إلى دفعة صغيرة ليصل إلى هذا الحد.. وكان هذا ممكناً، أي حصول الدفعة، لولا ان الخبر أعلن عند وصول القهوة. كخطأ في التوقيت.. ذلك ان

---

* - من كتاب السبعينات. أعماله القصصية «أحزان صغيرة» «اشتياق لأجل مدينة مسافرة» «زهرة الصخور البرية» «دوائر الدم» «حكاية الرجل الذي رفسه البغل». ←

المستمعات اللواتي تثيرهن مثل هذه الأخبار المفاجئة، كن سيفاجأن لولا خوفهن من اندلاق محتويات الفناجين على ثيابهن، وهذا أمر بسيط في كل مكان، إلا اذا جرى في حديقة ساميّة الهتاف، زوجة الرجل المعروف روحي الطابع، لأنه، ومن هذا المكان بالذات، خرجت اشاعة زواج حلمي الكتف من طالبة مدرسة اعدادية، رغم ان ابنته سوسه ـ واسمها الأصلي سامية ـ في السنة الثانية طب أسنان.. وزوجته ـ العتيقة طبعاً ـ كانت تدّعي انها في الثلاثين من عمرها، بينما لا يعلم إلا الله، وموظفو دوائر النفوس، عام ولادتها.. وقد كانت الشائعة حقيقية.

ومع ذلك، ما كان لمثل هذا النبأ ـ اختفاء القطة جوهرة ـ ليمر دون اهتمام يليق بعواطف السيدة درية، او بمكانتها كزوجة لزوج مرموق.. بداية، انصبت التعليقات على تقديم تفسيرات ممكنة ومؤاسية لاختفاء جوهرة.. احداهن، وهي السيدة لطيفة الهزّاز، وقد كانت تلف ساقاً فوق ساق، متحدية الألم الذي ما فتىء يعذبها، وهي تحاول اخفاءه، بسبب (الجورسيه) الذي لفته حول وركيها، في محاولة لكبت بروزات حوضها، وما يتبعه من ملحقات لحمية وشحمية ـ اعذروني لطول جملي ـ قالت ان خطف القطط امر نادر، لأنه لا جدوى منه، فهذه المخلوقات تعود من تلقاء ذاتها، ولا تعتاد المكان الذي خطفت إليه مهما كان مغرياً. وأصرت، حين اتيحت لها الفرصة، بعد مقاطعات فظة، ان تروي كيف حملت قطتها مع اثاث البيت، حين انتقل زوجها المحافظ من مدينة (...) إلى مدينة (...)، فاختفت القطة بعد ايام من تسنم زوجها لمنصبه الجديد.. ثم ابرقوا لها على (التليكس) ان قطتها، وكان اسمها لوسي، عادت إلى ديارها سالمة. وطبعاً لم تنس السيدة لطيفة اقحام خبر حفل الوداع في المحافظة القديمة،

← أعماله القصصية للأطفال «شجرة السنديان تصبح جسراً» «أحلام الصياد الكسول» «العجوز والشاب» «٢٠ قصة للأطفال».

أعماله النثرية «مقدمة للحب».

ومراسم الاحتفاء في الجديدة بين أدراج قصتها. فرصة كانت ستندم عليها لو أفلتتها.

وتعليق آخر من سيدة محترمة، بدليل نظارتها ذات الإطار الفاخر، والسلسلة الذهبية، التي هي بلا فائدة عملية عملياً، والتي تتدلى من اذني النظارة قليلاً إلى منتصف الرقبة، ثم تلتف حول الرأس من الخلف.. قالت المحترمة: لا تخافي، الأغلب ان جوهرة ذهبت لتلد في مكان ما. فالقطط، الإناث طبعاً، يلدن عادة في أماكن يرغبن ان تكون سرية.. فعلقت السيدة هاتفة الصابوني، وهي الوحيدة من شاربات القهوة التي تتمتع بشعر أبيض، كلي البياض، لم تعبث به اصابع الحلاقين واصبغتهم، ولا تزويراتهم المكشوفة، لا حبّاً بالطبيعة من قِبَل السيدة، بل لأن احد الزوار الأجانب ـ وهو سياسي معروف ـ امتدح، عَرَضاً، بياض شعرها، ووصفه بأنه مشابه لبياض شعر ممثلة الاغراء ريتا دلـ... ـ نسيتُ الاسم الثاني للممثلة ـ علقت هاتفة: وهكذا، سترجع لك جوهرة وهي تجرّ خلفها نصف دستة جواهر!

ردت درية المطلي مغتاظة: مستحيل.. لقد عقمناها في الشتاء الماضي عند الطبيب البيطري!

وفيما بعد، وأثناء ارتشاف آخر ما تبقى من قهوة في الفناجين، عادت تفسيرات الاختفاء إلى الظهور، والتأكيدات بان جوهرة ستعود، ما دامت معتادة على اكل اللحمة مشوية بالفرن، إلا اذا كان احد شياطين الشوارع، من تلامذة المدارس المجاورة، قذفها بحجر فأرداها، ذلك ان هذه المدارس تضم ما هب ودب من أولاد ناس لا يتقنون تربية أولادهم على حب الحيوانات الأليفة.

وفيما بعد، ايضاً، حين طُبّت الفناجين من أجل التبصير، وهو الفعل الروتيني الذي تقوم به السيدة هنية الساسي عصر كل اربعاء، طُرحت آراء جديدة، أقل حماسة من سابقاتها، منها ان القطة عشقت قطاً من حيّ آخر، ولحقت به، أو انها ديست تحت عجلات سيارة، أو عادت إلى باطن الأرض، لأن

بعض القطط اصلها من الجن، خاصة السوداء منها . . والسؤال الذي لم يخطر في بال الحاضرات، ولا في بال قراء هذه القصة، لماذا لا تقوم السيدة الساسي بالكشف عن مكان اختفاء القطة جوهرة بقراءة فنجان السيدة المطلي؟ . . سؤال وجيه حقاً . . لكن جوابه بسيط للغاية . إذ أن كل كشوفات ثفل القهوة المتشجر على اطراف الفناجين انما هو تنبؤات متفائلة من واقع يبدو راسخاً . نحو مستقبل أقل رسوخاً!

ولا يظنن احد أني سأروي كل الأحاديث التي تُدوولت في تلك الجلسة . او ان الأحاديث كلها كانت حول اختفاء القطة جوهرة . . لا . . فما اكثر القصص الرسمية . وشبه الرسمية، وغير الرسمية، التي يمكن روايتها في مدينتنا العامرة التي يشقها نهر عريق، لا يمكن العبور فوقه إلا بواسطة جسور غاية في الفخامة، تحمل أسماء بالغة الدلالة على العصر والمعاصرين . . ومن تلك الأحاديث القصة التي روتها السيدة روعة الفضي، والتي هي أغرب من الخيال، تكاد لا تصدق، لولا الأدلة والاستشهادات التي قدمتها، ولولا مكانة السيدة . . قالت ان المدعو خ . م . قام ببناء قصر له في قمة الرابية التي تقوم عليها قريته ولأن القصر يحتاج إلى مياه كثيرة لحدائقه لا تؤمنها مياه القسطل العام، فقد عمد إلى حفر بئر في الحديقة المتحلقة حول القصر . . وقد احتاج الأمر، نظراً لارتفاع الرابية، وبُعد المياه الجوفية عن السطح، إلى الاستعانة بحفارة بترول، وحفارة البترول تلك اخذها عنوة، اوبقوة النفوذ، من احدى شركات التنقيب الوطنية، وظلت تحفر عنده مدة ثلاث سنوات متواصلة، ولمسافة بلغت تسعمائة متر، أي إلى ان انبثق الماء . . شيء لا يصدق، لكنه حدث . . ومع ذلك أقول ان الحديث تشعب كثيراً في موضوع القطط بانتظار جفاف القهوة ـ أقصد حثالة القهوة ـ في الفناجين المطبوبة، فما من سيدة من السيدات المتحلقات حول البحيرة الرخامية المثمنة الأضلاع، في حديقة السيدة سامية الهتاف، لا تحفظ بعض القصص والذكريات عن قطط خاصة بها، اوسمعت عنها . أوشاهدتها فيلماً سينمائياً، اوقرأتها في مجلة او

كتاب . . ومن أغرب ما رُوي في هذا الموضوع حكاية مرعبة عن قط، كتبها كاتب عالمي . هو إدغار آلن بو ـ التوثيق من عندي ـ فراوية القصة نَسِيَتْ اسم الكاتب ولم تتذكر إلا قطه المدفون حياً في جدار إلى جانب جثة قتيل .

سأقفز هنا متجاوزاً الكثير من الأحداث، ومنها على سبيل المثال السبب الذي جعل مني مستمعاً مسجلاً لهذه الجلسة النسائية . . ومنها أيضاً ان سائق السيدة لطيفة كان قد غفا في سيارته المصفوفة في الشارع تحت إشارة «ممنوع الوقوف» تماماً . ولم تزعج نومه أية دورية . . سوى أن سائق السيدة هنية الساسي، وقد استدعي ليأتيَ بصور ملونة من السيارة، جُلُّها للمذكورة وهي تطوف في اليونان، سمع من الحديث الدائر حول اختفاء القطة جوهرة فألقى بقنبلته إذّاك . . قال ان بعض الصبية يقومون بخطف القطط من الأحياء . . ثم صحح : القطط السمينة، ويقدمونها إلى السيرك العالمي المتجول، والمضروبة خيمته الآن في الزبلطاني على كتف نهر قليط، كبدل عن ثمن تذكرة الدخول . وان القطط تقدم فيه طعاماً للفيلة .

لحظتها، بتعاطف لا يرقى إليه شك، رفعت السيدة سامية الهتّاف ساعد هاتفها المتنقل، مع شيء من الغيظ المفتعل الذي ظهر على شكل حركات آلية في تصرفها، وضربت ارقام الرقم السري لزوجها، ونقلت إليه نبأ السيرك والصبية والقطط والفيلة . والوحشية التي سادت الشارع الوطني، جراء اهتمامه بالقضايا العالمية .

كنت مستمعاً مسجلاً للجلسة النسائية تلك، كما تفضلتم وقرأتم قبل قليل، وبقيت، حتى ساعة انفضاضها المبرمجة بدقة . ولأنه من المستحيل ان اكون شاهداً في مكانين متباعدين معاً، فسأروي فيما يلي ما سمعته، إذ قيل إنه بعد ساعة واحدة من هاتف السيدة سامية الهتاف تمت مداهمة السيرك . . واسمحوا لي هنا ان أقطع سياق القصة لأخبركم ان اسم السيدة سامية لم يكن سامية في تذكرة الهوية، بل تسنيدة! اسم غريب حقاً لامرأة، زوجة رجل يستطيع إرسال دورية

مؤللة لمداهمة سيرك مدني . . والحقيقة ان التسمية تمت قبل أربع وأربعين سنة في قرية السيدة المذكورة نتيجة عناد الأب من جهة . وأميّة المختار من جهة ، وجهل موظف النفوس من جهة ثالثة . . وأما تغيير الاسم فلم يتم على أعتاب الثورة التي أنهت عهود الجهل . ولا على شرفها ، ذلك ان التغيير تم بناء على اعتبارات دخول الزوج والأسرة في الفئة الراقية من المجتمع . بالأحرى في مجتمع المدينة . لأن اهل القرية ظلوا يذكرونها باسم تسنيدة ، ويذكرون أباها بأنه ابو تسنيدة ، رغم انها الابنة الصغرى للأب بعد ثلاثة ذكور .

تمت مداهمة السيرك بثلاثة وعشرين عنصراً ، موزعين على ست سيارات ، أي بمعدل ثلاثة عناصر ، فاصلة ، ثلاثة وثمانين بالمائة وكسور . . ولكن ، وللأسف الشديد ، لم تتمكن كل هذه القوة المدججة بالبنادق والمسدسات وأجهزة اللاسلكي اليدوية من اعتقال سوى رجل واحد ، تصادف وجوده في السيرك هو البلياتشو ، وقد انيطت به مهمة اطعام الحيوانات في ذلك السيرك ، أما بقية الطاقم فقد كانوا يقومون بجولة سياحية في أرجاء المدينة .

سأتابع معكم مصير البلياتشو بعد قليل . أما السيرك بمجمله ، فقد شوهدت بعد ايام ست عربات مقطورة تعبر النهر الكبير الذي هو حد فاصل بين مملكتنا والمملكة المجاورة عبر جسر ، يسمونه نقطة عبور ، فيما يسمى الباقي من النهر خط حدود ، وكان طاقم السيرك كاملاً . سواء من حيث الأناسيّ او الحيوانات ، فيما عدا البلياتشو طبعاً .

وأما البلياتشو فسيُحكم عليه بالموت شنقاً ، ذلك لأن قوانين المملكة التي كتبت عنها القصة كانت صارمة فيما يتعلق بالقطط الأليفة .

---

* ـ هذه القصة منشورة في مجلة الوحدة العدد ٥٠ /

ممنون شواربك

حسن م. يوسف*

استيقظ الواوي من أغفاءته قبيل العصر، تمطى فاتحاً فمه على آخره، بحث عن الشمس بين اغصان الصنوبر ولما رآها قد مالت نحو الغرب، نعر حسين برؤوس أصابع يده اليمنى قائلاً بنشاط مفاجىء:

ـ قُم، فز، تأخرنا!».

غمغم حسين متذمراً..

ـ «هوه! ليش العجلة!».

رد الواوي بجدية مبطنة بالسخرية:

ـ «بظني انه نومة الاوتيلات ما تواتيك ولا تواتيني.. فنحن والشرطة.. حبايب!».

---

* ـ من كتاب السبعينات، له مجموعتان قصصيتان «العريف غضبان» «قيامة عبد القهار عبد السميع».

عندما وصلا بالتكسي إلى مدينة (ج) كانت الشمس تميل للغروب سحب الواوي حسين من يده إلى شارع البحر قائلاً:

ـ «تعال شف هالشوفة»..

استوقفه على الرصيف المقابل لمخازن الطجطوج أكبر تاجر في المدينة، اعطى ظهره للمحل كي يمكن حسين من النظر بشكل لا يثير الارتياب، همس:

ـ «شف لي هالوجه الناشف المقشبر والعياذ بالله! شف كيف يعد المصاري ويشلحها بالدرج بلا احساس كأنها زبل!».

استدار ناظراً إلى الطجطوج ليتأكد من بقائه على حاله.. تابع:

ـ «.. شف عنده درج بغمق السحارة وكل يوم يعبّيه مصاري.. وفوق هذا كله، يحرم عليه اذا عمره ابتسم! واحد فطيسة! وربك كل يوم يكت له هالمصاري ويقول له خذ!».

لمح الواوي رجلاً يخرج من المخزن حاملاً حصيراً ملفوفاً على كتفه، فرمش بعينيه الزرقاوين البراقتين واختلجت شفته العليا برخاوة واستلذاذ ثم شفط الهواء من انفه الدقيق الحساس مطلقاً ضحكته الممعوسة المهمهمة قائلاً في سره:

ـ «فقرا وملاعين! استوت الطبخة!».

أمسك حسين من أعلى ذراعيه قائلاً:

ـ «تجي نلطش غلة هالفطيسة القدامك!».

ضحك حسين من الحماس الذي أصاب الواوي فجأة، قال ماطاً كلماته بحسرة ساخرة:

ـ «يا ريت، بس كيف؟».

خبطة بكفيه على كتفيه قائلاً بمرح:

ـ «خليك، عندك!».

اجتاز الشارع متقدماً نحو المحل، تلقاه الطجطوج بوجهه الشاحب المغبر وعينيه العليلتين. ألقى الواوي السلام مشدداً على حرف (السين) كعادته.

ـ «السّلام عليكم!».

رد الطجطوج بصوت نيء واضعاً راحتيه على كرشه كما لو انه يخشى ان ينسلت من مكانه.

ـ «أهلين أمر؟».

قال الواوي لاوياً عنقه بأكابرية ريفية على طريقة وجهاء القرى:

ـ ما يأمر عليك ظالم يا آدمي! لازم لنا بساط محترم مثل فضل حكايتك!

سعل الطجطوج برخاوة مشيراً لصانعه نحو باب من الحائط الداخلي قائلاً للواوي:

ـ تفضل فوت مع الولد نقي اليعجبك.

اختار الواوي حصيراً طويلاً من القش السميك، دفع ثمنه دونما مفاصلة، ركن الواوي الحصيرة قائلاً:

ـ «عندي شغلة بالسوق، ممكن اتركه حتى ارجع؟».

هز الطجطوج رأسه، تناول ورقة من علبة مربعة أمامه كتب عليها بحيوية لا تلائم شخصيته «مباع» أعطى الورقة لصانعه قائلاً:

ـ «أشكلها بدبوس، حتى ما نغلط ونبيعه».

قبيل الغروب، صرف الطجطوج صناعه الثلاثة وجلس يصفّي حساباته. ألقى الواوي التحية مشدداً على حرف «السين» في «السلام عليكم» فأشار له الطجطوج برأسه نحو الحصير، حمل الواوي الحصير على كتفه الأيسر وعند الباب التفت إلى الطجطوج قائلاً بجدية:

ـ «ممنون شواربك يا عم!».

ثم مضى ضاحكاً في سره لأن الطجطوج كان أجروودياً، بلا شوارب!

وقف الواوي في مدخل احد البيوت يراقب مخزن الطجطوج من بعيد، قال للحصير المركون بجواره:

- «طول بالك، هاه رح يسكر!».

همس الحصير:

- «آخ على سيجارة!».

لمح الواوي رجلاً قادماً نحو مدخل البيت همس:

- «إس! ولا حرف!».

انزل الطجطوج غلق مخزنه الأول فحمل الواوي الحصير وتقدم نحو المخزن بسرعة صائحاً:

- «لحظة يا عم.. لحظة! الله يلعن هالحظ! طلع ميكرو الضيعة وانقطعنا..».

رازه الطجطوج بعينيه الذابلتين متوقعاً منه طلباً ما، قال الواوي وهو يلهث:

- «ممكن احط الحصير عندك لبكرة الصبح؟».

اشار الطجطوج برأسه إلى الداخل، فحط الواوي الحصير في مكانه السابق وكلمة «مباع» ما تزال مشكولة فيه، ابتسم الواوي للطجطوج وهو ينفتل خارجاً محركاً يده بالتحية اربع مرات على التوالي:

- «ممنون شواربك يا عم، ممنون شواربك!» ومضى يضحك في سره لأن الطجطوج كان أجروبياً بلا شوارب.

أمضى الواوي الليلة عند سليمان ابن خالته الطالب في مدرسة الصناعة، ومع شروق الشمس جاء إلى السوق فوجده شبه خال من البشر، خبط غلق التوتياء بقبضته محدثاً دوياً عالياً، صاح كما لو انه يغني:

- «اصحى يا نايم ما تسمع عنيني نحيل وعالسمرة اهدم حيلي».

أخيراً جاء الطجطوج متباطئاً كالسلحفاة مباعداً ما بين ساقيه بسبب فتق في خصيته اليمنى. فتح الأقفال الثلاثة لأول باب وعندما هدر الغلق وهو يصعد ملتفاً إلى الأعلى، تقدم الواوي نحوه بوجه متهلل:

ـ «الله يصبحك بانوار النبي يا آدمي! ممكن أخذ الحصير تبعي؟».

غمغم الطجطوج:

ـ «أهلين، تفضل خده».

صاح الواوي قبل ان يرمي الحصير على كتفه الأيسر «يا الله!» ثم طوقه بيده اليسرى محركاً يده اليمنى بالتحية اربع مرات متوالية وعند الباب التفت قائلاً:

ـ «ممنون شواربك يا عم».

ومضى يضحك في سره لأن الطجطوج كان اجروذياً بلا شوارب.

حط الواوي الحصير في مدخل فندق «الربيع» نظر حوله، همس:

ـ «افتح يا سمسم».

أخذ يحل الحصير بسرعة لافاً طرفه الحر وعندما انتهى من ذلك ظهر حسين أمامه حاملاً بقجة على رأسه كما لو انه نبع من الأرض.

قال الواوي لحسين وهو يعد النقود جالساً فوق صخرة على شاطىء البحر:

ـ «بشرفي انك جدع، ماخش قلبك؟».

رد حسين مبتسماً:

ـ «بالأول خش وشيع خشخشة. بعدين اشعلت الكهرباء ومشي كل شيء تمام، لعلمك لما خبطت الباب كنت نايم بتختـه، المضروب عنده غرفة نوم ملوكية، ومستودعاته، عينك تشوف، البضاعة فيها معرمة تعريم».

انتهى الواوي من العد واضعاً آخر ورقة من النقد على الكدسة القريبة منه قال:

ـ «المجموع ٣٦ الف، لي ١٨ ولك ١٨ والفراطة فوقها».

تنهد ناظراً إلى البحر قال:

ـ «تعرف، أنا مستعد حط هالمبلغ كله وفوقه كل حيلتي بالدنيا شرط اشوف وجه الطجطوج لما يفتح الدرج!» ضحك حسين.

ـ «تعرف انك ضحكتني لما قلت له «عنون شواربك»، لكن ربك ستر!».

واستغرقا في الضحك بينما كان البحر يلعق اقدام اليابسة مواصلاً سكب وشوشاته في اذنيها دونما كلل!

---

* * ـ فصل من قصة طويلة للكاتب تحمل عنوان «مغامرات الواوي». الفصل منشور في العدد ٤٣٠٣ من جريدة تشرين ٢٢ / ١٠ / ١٩٨٨.

مزحة

محمود عبد الواحد*

اندفع أبو طرطيرة ـ هكذا يسمونه في الضيعة لأنه يملك دراجة نارية ـ الى جوف مخفر البلدية كالصاروخ، ووقف أمام رئيس المخفر وصدره يكاد ينفجر من شدة خفقان قلبه. فنظر إليه رئيس المخفر ببرود وظيفي وسأله:

ـ مالك؟

فتناثرت الكلمات من فم أبي طرطيرة شرقاً وغرباً، مختلطة بلهاثه، وبالرذاذ المتطاير عن شفتيه:

ـ سيدي.. اليهود.. اليهود عندنا..

---

* ـ من كتاب السبعينات. له مجموعة قصصية «الضيف» ١٩٧٨، ومجموعة [illegible] الكوكب» تحت الطبع.

فنظر الرئيس إليه عابساً، ونهره قائلاً:

ـ احك بوضوح.. وإلا فعلي الطلاق بالثلاثة سأشوي جلدك...

فحاول أبو طرطيرة أن يتمالك نفسه ثم قال:

ـ انزال اسرائيلي عندنا في الضيعة سيدي.. أنا شفتهم بعيوني...

فسأل الرئيس مبهوتاً:

ـ أي ضيعة؟

ـ ضيعة «المروج» سيدي... أنا شفتهم بعيوني...

فبحلق الرئيس فيه وكأنه ينظر الى مجنون، ثم صاح به:

ـ أأنت بعقلك يا رجل؟ أي اسرائيليين وأي انزال؟ أتعرف كم تبعد ضيعتكم عن الجبهة؟ خمسمئة كيلومتر.. ثم ماذا سيفعل الاسرائيليون في ضيعتكم؟ العمى يقلع عيونك.. أتظنهم سيقطعون هذه المسافات كلها ويعرضون أنفسهم للخطر من أجل أن يجلسوا في مضافة مختاركم التي ينهشها البق هي وصاحبها... وأن يغصبوا بقهوته المرة التي لا تشربها الكلاب؟ أم من أجل التغزل بعيني وفيقة المقملة؟ انقلع من هنا ولا تعطلنا.. فالشغل يطمرنا...

خرج أبو طرطيرة وهو يؤكد بصوت باك محتج:

ـ ولكنني رأيتهم بعيني هاتين.. والضيعة كلها رأتهم...

بعد انصراف أبي طرطيرة لمعت في ذهن رئيس المخفر فكرة كضربة الشمس: ماذا لو كان أبو طرطيرة صادقاً؟ ماذا لو أن الاسرائيليين قد قاموا فعلاً بانزال قوات لهم في هذه الضيعة النائية لا لشيء الا لاثارة ضجة اعلامية واستعراض عضلاتهم، ولكي يثبتوا أنهم قادرون على بلوغ أية نقطة في الأرض العربية مهما بعدت؟ وعندها ماذا سيحل به؟ سيكون الشنق قليلاً عليه..

عندما لمعت في ذهنه هذه الفكرة خبط الطاولة بيده، وهب واقفاً كالملسوع لينادي أحد رجاله، ويرسله في أثر الرجل، كي يعرف منه مزيداً من التفاصيل، قبل أن يوجه مفرزة من شرطة المخفر الى الضيعة، ويبلغ القيادة.

لم يكذب أبو طرطيرة، ففي اللحظة التي دخل فيها المخفر كانت الضيعة ترزح تحت وطأة كابوس ثقيل لا يحتمل ولا يصدق. كان الأهالي كلهم يرتعشون في الساحة أمام جنود ثلاثة، يرتدون ثياباً عسكرية اسرائيلية، ويحملون بنادق اسرائيلية، وعلى رؤوسهم خوذ تحمل نجوماً سداسيةً واضحة لعين الأعمى.

أما أبو طرطيرة فنفذ من الاعتقال العام بأعجوبة. لقد انسل من دون أن يلمحه أحد، واستطاع الوصول الى «طرطيرته» والهرب بها، وهو لا يصدق أنه قد نجا بجلده.

كان الجنود الثلاثة يتبخترون كالطواويس أمام الأهالي شاهرين بنادقهم، وهم يطلقون ضحكات هستيرية ماجنة، ويتكلمون كما يتكلم اليهود في التمثيليات والأفلام، أي بعربية مكسرة تقلب الحاء خاء والضاد دالاً.

صحيح أن الانزال الاسرائيلي المزعوم لم يكن مجسداً الا في هؤلاء الجنود الثلاثة الذين تفوح من أفواههم، فوق ذلك، رائحة عرق وطني مغشوش، وأن الثياب العسكرية كانت تتهدل على اثنين منهم، وتنكمش على ثالثهم حتى يبين كاحلاه وكوعاه، وأن البنادق، لمن يمعن النظر، كانت مصنوعة من خشب صرف بسبطاناتها وأخامصها ومخازنها وزناداتها، وصحيح أن أحدهم نادى الآخر: «يا عبد الرحمن»، وأن هذا المنادى نفسه كان يحمل على ذراعه اليمنى وشماً يمثل قلباً يشبه البطيخة، يخترقه سهم مثل سيخ الكباب كتب على طرفيه: «جاسم وزينة».. هذا صحيح كله، ولكن الأهالي لم يلاحظوا شيئاً منه، اذ لم يسبق لهم أو رأوا قوة عسكرية أجنبية تخترق ضيعتهم منذ زمن الاسكندر المقدوني، الذي يزعم أهل الضيعة أنفسهم أنه مر بهم وهو متوجه الى بلاد الفرس، وأنه أعجب بالضيعة وأهلها، فتزوج «وطفة» ابنة المختار في ذلك الحين.

صحيح أيضاً أن السلطات المتعاقبة كانت تأخذ أبناءهم الى كل حرب تشهدها المنطقة ولكن هذه الحروب لم تكن تزيدهم الا جهلاً فوق جهلهم بما يجري في الدنيا، اضافة الى ان المتنورين من أبناء الضيعة، والعارفين بأحوال

العالم وحروبه وأسلحته وسياسات دوله كانوا يقبعون حيث تلقوا العلم، ولا يزورون الضيعة الا للتزود بمؤونتهم من السمن والجبن والزيت والزيتون. ولهذا فمن الطبيعي لضيعة كهذه أن تصاب بالوجوم والذعر وهي ترى ثلاثة جنود اسرائيليين، مهما كان شكلهم ولهجتهم ونوع أسلحتهم، يختالون أمامها، ويملؤون الساحة بزعيقهم.

كانت مطالبهم غامضة، فقد كانوا يصرخون:

ـ أين المخربون؟ أنتم تتسترون على المخربين.. ولهذا ستنالون عقاباً قاسياً...

وعندما أجابهم جاسم العبيد ـ وهو رجل ذو قامة ضخمة، وشاربين كثين مفتولين، وبنية متينة رغم أعوامه الخمسين ـ أنه ليس في الضيعة مخربون صرخ به أحدهم:

ـ بل يوجد.. وأنت تخبئونهم. أنتم جميعاً مخربون...

ثم رفع البندقية نحوه مهدداً باطلاق النار، فهوى جاسم على ركبتيه، مقسماً أنه سيقول كل ما يعرفه. ثم نهض وهو يبتلع ريقه، وأشار الى أحد الأهالي قائلاً:

ـ هذا ابنه يعمل مع المقاومة الفلسطينية...

ثم أشار الى رجل آخر وأردف:

ـ وهذا أخوه جندي قتل عشرة يهود في حرب تشرين.. وهذا ابن عمه يعمل في الاذاعة، وهو يسب اسرائيل وحكامها كل يوم في الراديو...

ثم التفت الى الجندي الاسرائيلي وهو يرفع يديه اليه ضارعاً، قائلاً بلهجة شبه باكية:

ـ أنا في عرضكم.. أنا طول عمري كنت أقول ان اليهود أحسن من العرب.. وان حكم اسرائيل أهون من حكم العرب... وأحلف بالقرآ.. بل بالتوراة أنني لم أشارك في أي حرب ضدكم..

ولكن الجندي لم يعره اهتماماً، وانما طلب من الثلاثة المذكورين مغادرة الصف وهو يهدد ويتوعد معلناً أنه سيسلخ جلودهم أحياء. ولكنه، فجأة، انتحى بهم جانباً، ووعد أن يعفو عنهم لقاء.. دجاجتين وبضع بيضات مسلوقة..

أما الجندي الآخر فقد تناهت الى أنفه رائحة فاصولياء تطبخ، فانشغل بها عن أسراه، وتبعها حتى يعرف مصدرها.

وأما الجندي الثالث فقد وقف أمام وفيقة المقملة ـ كما وصفها رئيس المخفر ـ وراح يتغزل بجمال عينيها. وعندما رأى أنها لم تتأثر بغزله قيد شعرة، بل ظلت واقفة كالحجر لا تتزحزح ولا يرف لها جفن، همس في أذنها قائلاً أنه لن يمسها بأذى إذا ما أمنت له قرص بندورة وقليلاً من الشنكليش والعرق البيتي. ولكنها أجابته بأنه لن يجد عرقاً في الضيعة كلها، فثار وغضب وراح يصيح:

ـ أنتم كلكم مخربون.

ولم يلاحظ أحد، لا من الأهالي ولا من الجنود، حمد الراعي ذا اليد المقطوعة، الواقف بين رجال الضيعة، ناظراً الى الجندي الذي كان يتحرش بوفيقة، وهو يرتعش من الغضب والاحساس بالعجز. كان يغمض عينيه بأسى ويعض على شفتيه بقسوة حتى يدميها.

فجأة، ووسط ذهول الجميع، انطلقت من فمه صرخة مباغتة:

ـ سوف ألعن والد والدكم.

ثم رفع عصاه واندفع نحو ذلك الجندي الواقف مع وفيقة وهو يهتف:

ـ الله أكبر.. أموت فداك يا أمة العرب.

لم يدر الجندي ماذا يفعل، فرفع بندقيته بحركة آلية نحو الراعي المندفع باتجاهه مهدداً باطلاق النار. ولكن الراعي لم يتوقف، وانما انهال عليه بالعصا ضرباً، فلم يجد ذاك من الفرار بداً، فركض وهو يصيح بلهجة عربية قحة:

ـ أوقفوا هذا المجنون . . العمى . . سيهرس عظامي . . . أوقفوه فنحن سوريون . . كنا نمزح معكم فقط . . وهذه هي هويتي . . .

ولكن الراعي لم يتوقف ليرى هويته، وانما استمر في ضربه. كما أن الأهالي، عندما رأوا هذا المشهد، أفاقوا من ذهولهم، واستعادوا رباطة جأشهم، واندفعوا خلف الجنديين الآخرين، لينال هذان أيضاً حصتهما من اللكم واللطم.

وحينما وصل رجال الشرطة الذين كان أحدهم يوصي الآخر بزوجته وأطفاله اذا ما سقط شهيداً في سبيل الوطن، كان الجنود «الاسرائيليون» الثلاثة يولولون بالعبرية فعلاً. وبدلاً من أن يسقط رجال الشرطة شهداء في سبيل الوطن سارعوا الى تخليص الجنود الثلاثة من قبضة الأهالي قبل أن يقضوا عليهم، ثم ساقوهم الى المخفر لينالوا هناك عقاباً أشد لاقلاقهم راحة الحكومة والمواطنين.

تبين أثناء التحقيق أن هؤلاء الثلاثة ليسوا سوى عمال عاديين في المسرح الجوال الذي كان يقدم في احدى المحافظات عرضاً مسرحياً بعنوان: «وافلسطيناه»، وقد تعطلت السيارة التي تحمل الديكور والاكسسوارات والملابس بهم وهم عائدون بالقرب من الضيعة، فتركهم السائق وذهب الى أقرب مدينة ليعود بميكانيكي . . . ولم يكن معهم ما يأكلونه أو يشربونه سوى زجاجة عرق، كرعوها عن آخرها على معد فارغة، فلعبت السكرة برؤوسهم، وأنتجت هذه الفكرة الخرقاء وهي أن يمزحوا مع ضيعة جادة للغاية. وهكذا ارتدوا ثياب الجنود الاسرائيليين المستخدمة في المسرحية، وتزودوا بالبنادق وببعض الجمل والتعابير الواردة في الحوار، واتجهوا الى الضيعة ليحدث ما حدث.

قرر رئيس المخفر اطلاق سراح العمال الثلاثة بعدما رأى أنهم قد نالوا ما يستحقون من عقاب. وانتهت هذه المزحة السمجة بالنسبة لرئيس المخفر وعمال المسرح عند هذا الحد.

أما في الضيعة فلا شيء يمضي من دون أثر. فبعد يومين اثنين فقط،

وعنـدمـا كانت الضيعة تستعد لاستقبال الصباح، كان جاسم العبيد ذو الشاربين المفتـولـين والبنيـة المتينة يضع آخر قطعة أثاث من بيته في عربة يجرها حصان. اذ لم يستطـع تحمـل احتقـار الأهالي له، والأهم من هذا، لم يستطع أن يتحمل احتقاره هو نفسـه لذاتـه، فقرر أن يتكوم على عاره ويرحل عن الضيعة، هووأسرته، الى غير رجعة.

دمشق ٢٦/ ٧/ ١٩٨٨

« عبد الله عبد الاله »

سامي حمزة*

● ناور طويلاً وهو يحدث صديقه، نوّه فلّمح ثم أفضى بهمه، وبيّن ان الشتاء طويل، واستعرض الألبسة الصوفية اللازمة للأولاد، والمدفأة وحاجتها للوقود، وحوائج المطبخ من زيت وزيتون، وهو يأمل من كل ما أتى به ان يدرك صديقه غايته فيقرضه بعض المال.

ولما استلم عبد الله دفة الحديث زاد على ما ذكره عبد الإله انه انفق راتبه واستدان أكثر منه، ولم يسد ثغرة الشتاء.

برطم عبد الإله، كأنه يمسح ماء وجهه الذي سفحه مجاناً، وقال:

ـ كلنا في الهواء سواء. واستدرك بسؤال: أسمعت ما سمعت؟

ـ ما قصدك؟

---

* ـ من كتاب السبعينات، اعماله القصصية «استنشاق رائحة اللون».

ـ يا أخي عن تخفيض قيمة مائة سلعة.
ـ أتمزح!
ـ ألم تسمع بذلك؟
ـ الذي سمعته ستون سلعة.
تمتم عبد الإله قائلاً: نرضى حتى لو كانت عشرين.
قال عبد الله: قولك.. بشرى لو صدقت الأقاويل، ولكن..
فقاطعه عبد الإله: لا... تلكنها.. يا رجل.

ثم روى عبد الإله، أن صديقه عبد الله وُجد مشنوقاً ـ بعد أيام ـ في ساحة السوق التجارية، فاستدعيت إلى المكان مفارز حفظ النظام، والطوارىء والانضباط والقضاء والإطفاء والنجدة والإسعاف ورجالات الأحياء والمخاتير ومندوب جميعة الاستشعار عن بعد.

فأبدى الجميع اهتماماً فائقاً بالمواطن عبد الله، كما بدا من تحركاتهم ونظراتهم وهمساتهم، وصمتهم الطويل.. الذي تقطعه أسئلة القاضي واستفساراته عن اسم المشنوق ومن يكون؟ فيشتعل السؤال على ألسنة المسؤولين اشتعال النار في الهشيم.. الكل يسأل ولا مجيب، إلى ان قال احد الموجودين في الصفوف التي تبعدها الشرطة إلى الخلف.
ـ انه معروف، نراه يومياً.

ـ أين؟.. سأل القاضي بحدة فقفز حول الرجل عدد من العناصر فأحاطوا به وعزلوه عن الجمع إلى أن قال: في الشارع. فانفضوا من حوله وتركوه نقطة تتلاشى في الموج، وعاد السؤال يقفز على الشفاه: ما اسمه، ألا يعرف أحدكم اسمه؟!

وتُسمع كلمات مبعثرة من أشداق الجموع: معروف. شكله مألوف. ليس غريباً تماماً. نلمحه احياناً يمر بشارعنا.. بالأمس كان يبحث عن.. قبل أيام

سأل عن . . قبل يومين باعني فراشاً . . منذ مدة اشتريت منه مذياعاً . . أول الشهر دفع . . بعد يومين استدان . .

ـ ما اسمه . . اسمه؟

طال الصمت ولم يجب أحد . وتلاقت عيون المسؤولين ومسح بعضهم عرقاً تصبب على جباههم .

قال القاضي : قبل تشريح الجثة ، لا بد من معرفة شخصه ، لذا لا بد من البحث مرة أخرى في جيوبه .

بحثوا عن بطاقة ، أو اثبات شخصيته ، فعُثر في شقٍ من جيب سترته على ورقةٍ مطويةٍ ، تناولتها الأيدي حتى وصلت إلى القاضي ، نظر فيها ثم فضها بعناية ، وبدأ يقرأها في صمت ورأسه تنخفض مع سطورها ، وتلوح من اليمين إلى الشمال بتؤدةٍ ، ثم تعاود القفز يميناً وتنسحب شمالاً وتستمر ، واحياناً تتسمر . حتى أتاها فطواها ، ودفع بها إلى أول مسؤول وصلت إليه يده مشرئبة كالعنق . فقرأها وطواها ودفع بها إلى آخرٍ ، وظلت الورقة تنتقل من يدٍ إلى أخرى ، ومن يقرأها يغادر المكان ، حتى انفض رهطهم لما قرأها آخرهم فطواها وألقاها على مقربة من المواطن عبد الله .

ساد الصمت برهة ، فتجرأ أحد الناس فاقترب ، واقترب باقي الناس ، وهمَّ احدهم فالتقط الورقة وفضها ، وارتفعت اصوات من حوله ، أنْ اقرأها واسمعنا فقرأ :

يخفض ثمن الزنجبيل . . والعطوس ، والكافور ، والبخور والزعرور والبعرور ، والقلفونة والصرمصرة ، واجور الختان والطهور . . وعندما أتم قراءتها لم يجد أحداً غير الجثة شاخصة كأنها تقول : تصورا!!

فخاف وأسقط الورقة من يده وأسرع مولياً . قال عبد الإله ، عندها كنت قد وصلتُ المكان ، فهالني المنظر ، واخذتني المفاجأة ، وسحقني الغم والحزن .

تطلعت حولي ولم أدر ما أفعله أمام جثة في فراغ ، جثة من؟ جثة صديقي

عبد الله! حاولت الاستنجاد. ركضت ذات اليمين وذات الشمال، لاحظت قدوم امرأة، عرفتها فهي زوجة المرحوم إذ سألته: أين «البونات» يا عبد الله؟

أردت الركض إليها، لكن ورقة ملقاة عند قدميه جعلني أتريث.

أخذتُ الورقة فقرأتها وتابعت:

- يخفض ثمن الدم،

- يخفض ثمن السم،.

شاعر بلدنا محيي أفندي

حكم البابا*

في الطرف الشمالي الغربي لبلدتنا الصغيرة ثمة حانة يرتادها الهاربون من زوجاتهم اللواتي يقصرن العمر باللغو الفارغ والطلبات التي لا تنتهي، وانتم طبعاً تعرفون هذا النوع من الزوجات لأنكم تعيشون نفس أوضاعنا. وهناك على طاولة منزوية نلتقي نحن الأربعة.. محسوبكم ومعلم المدرسة السابق طاهر بك أوغلو الذي أقنعته زوجته بانه يستحق الكرسي الذي يجلس عليه مدير المدرسة الشاب، لأنه خدم في التعليم عشرين سنة وخرّج أجيالاً من طلابه منهم من أصبح قائمقام، ومنهم من صار وزيراً وكلهم أصابوا شهرة واسعة وهو لا يزال في مكانه، كل يوم وزوجته تحضه على المطالبة بحقه فما كان منه إلا ان ندف المدير تقريراً إلى القائمقام قال فيه أن المدير يسكر في المدرسة، وتلتقي كل ليلة في بيته شلة أعوذ

* ـ من شعراء الثمانينات. من أعماله الشعرية «سورة ريم»، «مر من هنا»، «سيرة العائلة».

بالله . . !! ولما كان المدير يملك صلات واسعة، ويستضيف القائمقام في بيته كل ليلة فقد احيل طاهر بك إلى المعاش وانتهى إلى طاولتنا ليسكر ويعيد علينا حكايته يومياً: أنا شوبيعرفني القائمقام صديقه!! . . اشرب . . اشرب . . كاسك يا دكتور ناظم . ويصفي الكاس إلى آخره . والدكتور ناظم صديقنا الثاني يأتي في السابعة مساء إلى الخمارة ولا يخرج قبل الثانية ليلاً، والأصح انه لا يخرج لأنهم يحملونه إلى بيته على آخر نفس، وحتى لا يسرح بكم الخيال بعيداً الدكتور ناظم ليس دكتوراً حقيقياً بل هو ممرض المستوصف الوطني في البلدة، ولما كان يعرف كيف يعطي الحقن ويبسط كفه اليسرى على صدر المرضى ويدق عليها برؤوس اصابع كفه اليمنى، ويقول للمريض: اسعل . . فإذا كان سعاله ناشفاً يقول: سعال ديكي، أما اذا كان عادياً فيطمئنه: بسيطة . . برد، رد عليك الغطاء بالليل . ويخربش له على ورقة كلاماً ليصرفه من الصيدلية، ويعود المريض ليقول له: لم اجد الدواء يا دكتور ناظم فيجيبه: بسيطة خذ هذه الأقراص . ويعطي نفس الأقراص سواء كان المريض مصاباً بالسرطان أو بالإسهال . وعندما نسأله عن هذا يقول: بسيطة . . ما حدا بيموت بغير يومه . . والدكتور ناظم كان يدرس الطب لكنه في السنة الأخيرة بدأ يمارس الطب ويتقاضى اجراً، فطرد من الجامعة واستطاع ان يدبر لنفسه وظيفة في المستوصف .

أما صديقنا الثالث محيي أفندي فلا نعرف عنه شيئاً إلا أنه شاعر، ونادراً ما يفتح فمه إلا لقراءة قصيدة جديدة، كل ما نعرفه أنه كان نجاراً قبل ان يسافر إلى انقرة، ويكتب قصائد، ويخططها ليعلقها في دكانه داخل إطارات مذهبة، ثم باع الورشة وذهب إلى انقرة وبعد سنوات عاد مفلساً وانضم إلينا .

ومحسوبكم قصته قصة ولا يريد ان يفضح نفسه . المهم كنا نجلس كل يوم نتسامر ونقضي ليالينا، كل منا يعيد قصته إلا محيي افندي الشاعر الذي يجلس طوال الوقت صامتاً يتأمل كأسه شارداً، واحياناً يخرج عن صمته ليتحسس الطاولة التي نجلس حولها ويقول: هذه الطاولة ستتكسر، يلزمها عارضة ومسمارين،

ويصمت، وحين يكتب قصيدة جديدة تراه كأنه غير محيي أفندي الذي نعرفه، يضحك، يصرخ ويتمايل، ويشير بيديه ولكن لا أحد يعرف قصته، كل مرة نسأله يغوص أكثر في الكأس ويشرد. المهم شيطان الشعر انقطع عنه اكثر من ستة اشهر، وفي كل يوم كان يكبر سنة، واخيراً جاء اليوم الذي لم يعد يطيق فيه ان يصبر اكثر وحكى لنا قصته. وصل متأخراً وقبل ان يجلس مد يده إلى كأس الدكتور ناظم وافرغه في جوفه دفعة واحدة، ثم جلس وفتح حقيبته، اخرج منها قصاصات الجرائد التي يحملها وقال:

ـ انظروا هذه قصائدي في جرائد العاصمة.

وبعيون فتحتها الدهشة كانت نظراتنا تتحسس السطور بذهول. صديقنا محيي افندي كان شاعراً مشهوراً. اسمه مطبوع في كل جرائد أنقرة، أشار إلى بعض القصاصات وقال: هذه بداياتي. وبصعوبة في الضوء الخافت قرأنا (بـ..ـريـ..ـد الـ..ـقـ..ـراء) وتحتها اسم محيي افندي. وتتالت القصاصات ونحن نقرأ اسمه ونصيح: برافو كاسك. ولم يتركنا كثيراً على هذه الحال، بل مد يده إلى الحقيبة وأخرج كتاباً ناوله لنا فقرأنا اسمه بالخط العريض وقال وكأنه يتابع كلاماً قاله ولم نسمعه:

ـ . . . طبعاً انا كنت اهم شاعر في العاصمة.

فتحنا الكتاب وقرأ طاهر بك السطر الأول من القصيدة «لا حياة مع اليأس..» فلم يترك الدكتور ناظم ليتابع القراءة وصرخ: حلو محيي أفندي.. حلو، كلام جواهر.

ارتاح محيي أفندي الشاعر على كرسيه وقال: يا شباب ست شهور ولم أكتب قصيدة، أنا كنت في أنقرة اكتب كل يوم ديواناً، والنقاد الذين كانوا لا يهتمون بناظم بك حكمت.. كانوا لا يفارقونني، يكتبون عني في الجرائد لا يتركونني لحظة. أقمت أمسية في رابطة الكتاب وقرأت شعري من على الطاولة التي صنعتها بنفسي في محلي. قالوا لي: يا محيي أفندي اطبع ديوان شعرك سيخلدك. قلت

بعـدين، يجب ان تنضـج تجربتي، وقـال لي النـاقد مدحت أفندي آقبيق: سأكتب عنـك دراسـة كبـيرة ولكن الكرسي لا يساعدني في الكتابة، يا أخي الكتابة تحتاج إلى جو، قلت له: تكـرم عينـك مدحت أفنـدي. وصنعت له كرسيـاً أحسن من كرسي السلطان عبد الحميد في زمانه. وطلب مني الصحفي أورهان شندي طاولة ليكتب عليهـا ففصلت له طاولـة ورفضت أن آخـذ ثمنها، قلت: عيب نحن ولاد كار واحـد، يعني كُتّاب، المهم راحتـك اكتب ولا يهمـك، وفي اليـوم الثاني كتب مقالة في الجريدة قال فيها اني افضل شاعر ولدته تركياً!

يا أخي الرجل ذوّاقة يفهم في الشعر. أحد اصدقائنا همس في أذني: يا محيي أفندي انت شاعر ويجب ان تقدر الناس. رئيس رابطة الكتاب بحاجة إلى مكتبة، كتبـه على الأرض والكتب شيء ثمين كما تعرف، عصـارة الفكـر البشري. وبعد شهـر كانت المكتبـة جاهـزة أهـديتهـا لرئيس رابطة الكتاب، الصراحة كان رجلاً فهيماً، قبلني بعد أن تأمل المكتبة وقال: أنا اعرفك يا محيي افندي منذ زمن اتابع ما تنشـره في الصحف، انت شاعـر مهم، ونحن عندنا في رابطة الكتاب بحاجة إلى شعراء موهوبين تعال نقبلك عضواً.

وقبلوني عضـواً، المهم بعت المنشـرة وطبعت ديـواني قالوا لي: انت اهم من «شاكسبير» يا شباب هذا شاعر انكليزي، لكن المصاري خلصت وظهر لي ولد في الجـريـدة صار يشتمني، قلت لنفسي سامحه، الشباب كله حماس، بعدين بيعرف قيمتي. وطلب مني مدحت أفنـدي آقبيق النـاقـد غرفـة نوم، قال انه سيتزوج ولا يعـرف من هو اكثـر اخـلاصـاً مني في عمـلي في الشعـروالنجارة. قلت: يامدحت افندي اطلب أي خدمة، أهديك قصيدة ممكن، اكتب عن عيون حبيبتك ممكن، لكن المنشرة بعناها. وبعد يومين جاءني وقال:

لاحظت في شعـرك بعض التفكـك، يجب ان تذهـب إلى بلدتك وتتأمل الطبيعـة وتتـوحد بها، يا أخي المدينة الكبيرة تخرّب الشاعر، محرقة يا أخي محرقة. ونحن لن ننسـاك أرسـل لنـا شعرك بالبريد، وعندما نشعر بأن الصفاء القديم عاد

لقصائدك سنرسل في طلبك. ووافقه الصحفي اورهان شندي على رأيه. لذلك عدت ومنذ سبع سنوات وانا أرسل لهم قصائدي. آخر مرة كتبت لهم: يا شباب يجب ان اعود إلى أنقرة، لأن الشعر بدأ يخرب عندكم.

تصوروا ناظم بك حكمت وأمثاله صاروا شعراء، دنيا عجيبة، لكنهم حتى الآن لم يجيبوا على رسائلي، الظاهر يا شباب كان علي أن اصنع لهم طاولات جديدة ليجيبوا على رسائلي، فالكتابة تحتاج إلى جو مريح. أنتم لا تعرفون ذلك. اسألوني أنا!!؟

---

* - نشرت هذه القصة في جريدة تشرين بتاريخ ١٦/٨/١٩٨٨ على أنها قصة للكاتب التركي الساخر عزيز نسين، وان مترجمها هو حكم البابا!!

دلال عقارات

خطيب بدلة*

(حرامي مانَكْ . . إيدك في جيبي ليش؟) .

- ١ -

[شـارع طويل، جنباه مزحومان بكومات من البحص والحجارة والنحاتة. يخترقـه، من جهـة الشـرق، رجـلان. الـرجـل الماشي في المقدمة متوسط الحجم والعمـر، ممتلىء . . ، رأسه صغير، ومتصل جسمه مباشرة. دون رقبة. له بداية كرش ذي مسـتـقـبـل. يمشي وراءه، على استحياء، شاب نحيف، محدودب الظهـر. . على ظهـره رقعتان، لحيته نابتة وخداه غائران في فمه . . (مَن يره يعتقدْ انه هارب من احدى لوحات الفنان علي فرزات) .

---

* - من كتاب الثمانينات. له مجموعتان قصصيتان «حكى لي الأخرس» و«عودة قاسم ناصيف الحق».

الـرجـل ذو الكـرش ذي المستقبـل يحكي دون انقطـاع، في حين الـرجـل العليفرزاتي يعبرُ عن دهشاته المتلاحقة بفتح فمه وإغلاقه ورفع حاجبيه وخفضهما. . .]:

ـ الله وكيلك خيّ أبو محمد. . أبو محمد أليس كذلك؟. . اللهم صل على سيـدنـا محمـد، . . . الكذاب ملعون: هذه أحسن دار في إدلب كلها. أنت انظر إلى هذه الإطـلالـة، انظـرا . . . دار مثـل النفجـة؛ في الصيف براد، وفي الشتاء حمام؛ مفتـوحـة على الأربـع جهـات، صيفيـة شتـوية، شمسـية قمرية، تستقبل الشمس عند الشروق وتودعها عند الغروب.

أنت تعـرف المهنـدس الـذي صممهـا، ذكـره الله بالخـير، الأستـاذ رستم الكشك بلَبَنْ، تعرفه، أنا لن أحكي لك عنه. الرجل درس في فرنسا. . في فرنسا أخي، موبحلب. وهـذه تفـرق. تفـرق أم لا تفـرق؟ تفـرق. ومن هو صاحب الدار؟ الحاج درويش المِزّ. الرجل حجي، يعرف الله ويتقيه حق تقاته. انه ليس كأولئك المتعهدين الطالعين على الدنيا من جديد، وقرعات آبائهم غير معروفة. هـؤلاء لا يعـرفـون الله بالإشارة. الحاج درويش رجل صايم مصلي لا يرفع ذكر الله من فمـه. وغـير هذا أنـا، أكثـر من مرة رأيتـه: لبنـاء جامـع، يتـبرع بما فيـه النصيب. . لشحـاد، يقـترب منـه الشحـاد فيضـرب يده في جيبـه ويخـرج كل الفرطات التي فيها، يصرُّها ويقول له: خذ! ومن كان مثله ماذا يقول له الكريم؟ يقـول له الكـريم: خذ! وبـالفعـل، قال له الكريم: خذ! أعطاه حتى بشمه. . صار عنده حتى الآن ـ اللهم لا تجعلنا من الحاسدين ـ خمس عشرة بناية، والشخين لقدام. .

ما لنا فيها؛ لنا في المهم: الداريا صاحبي في الطابق الرابع. والطابق الرابع لواحد مثلك حفر وتنزيل. أنا ارى ان الطابق الرابع احسن شيء للسكن. اسألني لماذا. . لأنه لا يوجد فوقك ـ بلا معنى ـ احد. تُدَرِّبك أنت على الجيران بقدر ما تشـاء، ولا أحـد يستطيـع ان يُدَرِّبـك عليـك. تستطيـع ان تمشي انت وزوجتك

واولادك . . عندك أولاد؟ ما عندك؟ أخ، أحسن! في هذه الحالة تستطيع ان تبقى انت وزوجتك ليلاً نهاراً بالسيقان دون ان يراكما احد، . . في حين تستطيع انت ان ترصد أصغر حركة من حركات الجيران. حكى لي واحد من أصحابي ساكن في الرابع، قال لي:

ـ أفلام يا أبو مطيع، أفلام من تلك التي علمك منها، لكن هذه: شخصي!

بعدها سطح البناية كله تحت تصرفك. عليه تنشر غسيلك ودبس بندورتك وتبنك وزبيبك ومربـاك. . تستطيع ان تبني شمسية حمام دولية، ويكون عندك (حطيط) طويل عريض. وانا أراهنك انه لا يمر يوم دون ان (تكعش) طيراً قطيعاً واحداً على الأقل. ولا تؤاخذني اليوم أهوى طير حَمَام ـ حتى المبندق ـ بهاثة ليرة.

بعض الناس يفضلون السكن في الطابق الأرضي. قال ليش؟ قال لأن فيه حديقة. . هه! . . مرحبا حديقة! صحيح ان في الطابق الأرضي حديقة، لكنه، بالنسبة للبناية، مزبلة. نسوان الطوابق العليا يرمين عليه ملاقط الغسيل. . الأولاد يرمون عليه ما فتح ورزق من أشياء لا تخطر ببال. بعدها، اليوم زقمتْ بالوعة الطابق الثاني، زقمتْ عندك وطاف عليك النجس. . واليوم تعطلت فواشة الخزان في الثالث، طاف الماء وتكبكب عليك. . وأيّ ماء! واليوم شطفوا البرندا في الرابع، وشُرّ، فوق غسيلك، فوق قديدك. . وغداً نزل مطر غزير، صار سيل، قلبت المياه من الشارع عليك، وتعال وقتها صَرِّفْ اذا كنت تصرف. . هذا عدا عن أن حرمتك لا تجرؤ على الخروج بره باب البيت دون لباسها الكامل. . أنا، عليّ الحرام، وبأولادي، لو مَلّكوني طابقاً أرضياً ببلاش، لا أسكنه. قال أرضي قال! . .

أمس، من يومين في حي الناعورة، كان واحد من سكان الرابع يعيرّ آنتيل التلفزيون على تركيا. برمه هكذا، برمه هكذا، وطُبّ! . . وقع الآنتيل على

الطابق الأرضي. الأنتيل تشقف في الحال، وشقفة منه طارت، خرقت بلور غرفة النوم، وجرحت صاحب الدار (في ظهره!).

تصور أخي أبو محمد، تصور نفسك أنت وأختي أم محمد قاعدين صباحاً في الحديقة تشربان فنجان قهوة، وطُبّ، وقع عليكما شيء؟ يعني الواحد، كرمى لأن يسكن في دار فيها حديقة، يغامر بحياته؟

وهذه أيضاً ما لنا فيها، لنا في المهم. المنطقة هنا وسط. وخير الأمور ماذا؟ الوسط. عدم المؤاخذة، واحد مثلك أين يسكن؟ في ضَبِّيط أم في القصور؟ اذا سكنت في حارة أكابر تجد أن أهلها يتمضرطون عليك، مع أنك أحسن منهم، واذا سكنت في حارة جربانة، الأمور على أهوى. . ودنودنو، كل واحد يسكن مع اللي منو.

- ٢ -

[يتوقف الرجل ذو الكرش ذي المستقبل عن الكلام فجأة. يحك رأسه. يتقدم من الرجل العليفرزاتي، يسحبه من كمه ويتقدم به نحو المدخل - يتابع حديثه]:

- إي سيدي. عدد الدرجات المؤدي إلى بيتك مفرد. ثلاث وسبعون درجة. وهذه ناحية مهمة جداً خيّي أبو محمد. اسألني لماذا. لأنك في هذه الحالة، تبدأ الصعود بالرجل اليمنى، تصل بالرجل اليمنى، تبدؤه باليسرى، تصل باليسرى. . شكوته لله هذا المهندس رستم، أفكاره تخل العقل!

- ٣ -

[يتابع الرجل ذو الكرش ذي المستقبل قيادة زبونه من كمه. يبلغان باب الدار]:

ـ سُوَيد وزان. الله وكيلك مستحيل ان تجد قطعة شوح واحدة. الحجي في حياته كلها ما نجّر بقطعة شوح. الشوح فشفاش، الأبواب التي تُصْنَعُ منه تُفَتّل، وملیان عُقداً، وكبرته تعبانه و. . .

- ٤ -

[يفتح الرجل ذو الكرش ذي المستقبل الباب بالمفتاح. . يدخلان. يتابع]:
ـ فتحنا الباب، دخلنا، . . أول شيء يطلع في وجهنا: المرحاض! والمرحاض، افرش ونم! وسيـ. . . . ع. وهذه الناحية حساسة جداً. صحيح أنت ـ لا تؤاخذني ـ نحيف، لكن ممكن ان يأتيك ضيف سمين. . آ؟ بودك الحق أم ابن عمه؟ المراحيض الضيقة ما فيها رواق. بعدها، في غير هذه الدار تجد ان المرحاض على الممر مباشرة. وهذا عين الغلط! . . هنا الأمر مختلف: عندك باب، ممر، ثم المرحاض. في الممر مغسلة ومرآة، ويمكن ان تضع فيه ميزاناً. . في المرآة ترى وجهك قبل الدخول وبعد الخروج وتلاحظ التغيرات عليه، . . وعلى المغسلة تغسل يديك قبل الدخول وبعد الخروج، . . وبالميزان، وبعملية حسابية بسيطة، تعرف الكمية التي طرحتها بدقة. . هذا بالإضافة الى ان الروائح والأصوات لا تنتقل الى الخارج. . اضربْ في الداخل قنابل، أفرغ سيارة حجارة، لا أحد يسمعك.

- ٥ -

[ينتقلان بإيعاز من الرجل ذي الكرش ذي المستقبل إلى غرفة الضيوف]:
ـ ما هذا النموذج من غرف الضيوف مثيل في البلد. فهي قريبة من باب الدار. . دخل الضيف، خرج، لا يشعر به أحد. . وقريبة من المرحاض! فلو

كانت جوانية وانزنق عندك ضيف؟ . . بقى دستور واحِمْ، ويا أم محمد خذي لنا طريقاً، ولا أعرف أيش، . . تستغرق معك الشغلة دقيقتين، يكون الأمر خلاهما قد انقضى، وتلتاش!

وهـذا باب على الـبرنـدا، حتى البرندا ـ انظر ـ مبلطة؛ والبلاط في الدار كله شحف أردني . .

وهـذا شبـاك آخـر فن . له أبـاجـور وشعـريـة . الباب يمنع دخول الهواء، والشعـريـة تمنع دخول الذباب، والأباجور يمنع دخول الشمس . . وأنت في هذه الحـالـة حر، تريـد شمساً دون هواء وذباب، أو هواء دون شمس وذباب، أو ذباباً دون شمس وهواء . . تتكيف بتحريك قِطَعِهِ على هواك .

- ٦ -

[يتابعان تجوالهما في الدار]:

ـ أريـدك ان تعـرف أنـك ـ بهذه الشـريـة ـ واقـع في حضن أمـك وأبيك . أتعرف كم يطلب الحاج درويش بكل هذه الدار؟ خمسمئة ألف ليرة بَسّ . . ومن شان خاطرك أنت ندبِّرها بأقل من هذا المبلغ . الحاج درويش أوصاني بكم أكثر من مرة . قال لي: دِرْ بالـك بقـدر ما تستطيـع على أصحاب الدخل المحدود، هؤلاء صاروا أفقر الناس في المجتمع . . فلا تَلْطُهم بالسعر . يا إلهي كم إن قلبه طيب . . لا ينسى أحـداً أبـداً . . يعني بالأربعـمائة وخمسين ندبرها لك . . وأنا من طرفك ما من طرفه . .

تعال بقى أريك الحَمّام . .

- ٧ -

[ينظـر الـرجـل ذو مشروع الكرش ذي المستقبل وراءه فيكتشف ان الرجل

العليفرزاتي قد اختفى. يركض في الممرات بحثاً عنه.. لا أحد.. يضرب جبهته براحة يده بلؤم. يتابع قائلاً]:

ـ كل هذا العلك الـذي علكتـه يا أبـو مطيـع راح سدى. لكن الحق على من؟ الحق على لحية أبيك أنت. كم مرة قال لك الحاج درويش: هؤلاء ناس، الحيام كثيرة عليهم؛ فلا تضع وقتك معهم.. وأنت لم تقتنع؟

ـ ٨ ـ

[في بيت أبـو مطيـع. أثـاث متـوسط الفخامة. هاتف معلق بالجدار. يرن الهـاتف، تحمله السيـدة أم مطيـع: آلـو، من؟ الـدكتـور نصري؟ تفتل أصابعها مستسفـرة من زوجهـا، فيشـير لها الأخـير بان تقـول له إنـه موجـود.. لحظة من فضلك.. أبو مطيع معك].

أهـلاً وسهـلاً سلامـات ياهلا دوكتور.. إي، الاتكال على الله.. بواحد ونصف؟ ربِّ يَسِّرْ.. خمسة آلاف لي؟.. إي ولو.. يكثر خيرك.. الله يربحك يا سيدي.. مع السلامة.

ـ ٩ ـ

[لافتـة مكتـوب عليهـا بخـط الثلث (عِزّ.. للبناء والإعمار)، وفي الداخل مكتب فاخر الأثاث. الحاج درويش وراء المكتب، يعد لأبو مطيع قطعاً نقدية من فئة الخمسمئة ليرة]:

ـ واحد..

ـ واحد الله.

ـ اتنين..

ـ يا مُوَفِّي الدين.

ـ تلاتة..

ـ الله يجيرنا من الشماتة.

ـ أربعة..

ـ ألله يرضى عن الأربعة.

ـ خمسة..

ـ في عيني الشيطان.

صاروا ألفين وخمسمئة، وألف أخذتها على الحساب ـ اللهم أجرنا من يوم الحساب ـ صاروا ثلاثة وخمسمية.. وخمسة من الدكتور نصري، صاروا ثمانية وخمسمية.. لاضربت بالقظمة ولا بالجاروف.. رُحْ الله يرزقك وعنا ما يتخلى يا أبو مطيع، قل آمين!

ـ ١٠ ـ

[الشارع الموصوف في المقطع ـ ١ ـ يخترقه رجلان،.. أبو مطيع،، ووراءه رجل عليفرزاتي لكن هذا برقعة واحدة]:

ـ أما عليك حَظّات يا خيي أبو.. أبو أيش؟ أبو محمد؟ أيضاً؟.. إي، وما المانع؟ محمد اسم مثل الفلة، جميل وفضيل ولفظه سهل وكتابته هينة، ومألوف.. أنا مثلاً عندي ثلاثة شباب: مطيع وثروت وعبد الرزاق.. هذا هو المعروف عنهم، لكن، في الحقيقة، كل واحد منهم، قدام اسمه محمد. وأفضل الأسماء ـ كما تعلم ـ ما عُبِّدَ وحُمِّد.

يبدو أن الوالدة يا أبو محمد رضيانة عليك.. عايشة إن شاء الله؟ ميتة؟ إي، الله يرحمها.. كلنا على هذا الطريق، لو أنها تدوم لدامت لأشرف الخلق.. معنى هذا انها رضيانة عليك في قبرها، وإلا ما كان جل شأنه أوقعك على رجليك

واقفاً إذ أهمك على شراء هذه الدار التي لا تختلف عن القصر في شيء. هذه دار للصيف وللضيف ولغدرات الزمان.. دار واطية، والأرض الواطية تشرب ماءها وماء غيرها. وأسهل من هكذا لا يمكن ان تجد.. ثلاث درجات وتصبح في دارك، في حين سكان الروابع يطحون وينحون ويلهثون ويشخترون حتى يصلوا بيوتهم، إذا وصلوا!... ومعظمهم، وحق الأخوة، مصابون بالروماتيزم والدوالي والعرق الأنسر والديسك وتسرع القلب وغيرها وسواها. أنت الآن كم عمرك؟ لنقلْ إنه خمس وثلاثون سنة، يعني خمس عشرة سنة أخرى تدوس في الخمسين.. ووقتها كيف ستطلع إلى الطابع الرابع؟

- ١١ -

[يسحب أبو مطيع زبونه العليفرزاتي.. يصلان باب الدار]:

ـ هذا اسمه جرس، تضغط عليه فيبدأ التغريد في الداخل.. وهذه عين ساحرة. يجيئك ضيف، يرن الجرس، فتأتي انت على رؤوس أصابعك.. تنظر من خلال العين الساحرة، تراه، هو لا يراك.. أعجبك الضيف، أدخلته، ما أعجبك، لا ترد. بيني وبينك، أنا لا أفتح الباب إلا اذا كان لي مع طارقه مصلحة.. بقي هذا جاي يتسلى وهذا جاي يقطع وقتاً، وهاتي يا أم مطيع قهوة، هاتي برتقان، وهاتي زهورات.. يخسِّرنا من جهة، ويعطلنا عن شغلنا من جهة ثانية.. لا عمي لا،

- ١٢ -

[يفتح أبو مطيع الباب بالمفتاح. يدخلان. يتابع]:

ـ بعض الناس يفضلون السكن في الرابع. وهذا غلط لا يخلطه خالط. اسألني لماذا. لأن الطابق الرابع مفتوح من فوق، وبالتالي فانه لا يحجب البرد في

الشتاء، ولا الحر في الصيف.. هذا عدا عن نشيش السطح، وشحار المدافىء والإحساس بالعزلة.. شيء يطقق. على حد علمك خلال السنوات العشر الماضية، كم حادث انتحار جرى في إدلب؟ خمسة؟ ستة؟ كل الذين انتحروا كانوا ساكنين في طابق رابع.. اسأل من تريد عن ذلك اذا كنت لا تصدقني. حكى لي واحد من أصحابي، قال لي: نمنا مرة وكان الطقس عادياً.. استيقظنا في الصباح فوجدنا الثلج مغطياً الأسطحة، ونحن فوق في الرابع.. يا أبو مطيع، مالك علي يمين، أنا، لأول وهلة، ظننت نفسي في جبل الشيخ! بقى بربك الواحد في مثل هذه الحالة ما لازم ينتحر؟

يا أخي الطابق الأرضي غير.. وفيه نفع أيضاً.. عندك مثلاً الحديقة مساحتها اكثر من نصف دونم. وطبعاً انت لن تتركها قرعاء، تزرع فيها كل شيء، من البصل إلى الخيار إلى العجور إلى الباذنجان.. أبداً لا تحتاج شيئاً من السوق، واليوم كيلو البصل، اللي طول عمره ذليل، صار بأربع ليرات!

ثم الجيران، كم يوقعون عليك من أغراض؟ كثير. وانت ماذا تعمل؟ تلم وتبيع تلم وتبيع.. ، أو، اذا كنت لا تريد ان تبيع، تتصرف: من هنا ثوب نسائي، تُلْبِسُهُ لحرمتك، من هنا بالون، تعطيه لابنك، من هنا سروال داخلي، تلبسه أنت.. وهذا كله ماذا يكلف؟ لا شيء سوى ان يرن الجرس فتفتح الباب:

ـ عمو طابتنا وقعت عندكم؟

ـ لا والله يا ابني.....

وكان الله بالسر عليما!

ماذا تريد؟ أنت تريد داراً تدفيك في الشتاء، وتنعش قلبك في الصيف.. ، بربك انظر إلى هذه الاطلالة، ألا يظن القاعد فيها نفسه في جبل الأربعين؟

- ١٣ -

[أبو مطيع ينقر بقفا يده على أحد الأبواب]:

ـ شوح . . تخبير حلال . الحاج درويش منجّر بناياته كلها بالشوح . . ونحن لا نقول : زان أوسُوِّيد . لماذا؟ لأن الكذاب معلون ، واللعنة لم تحملها الجبال الرواسخ . من زمان كان الحاج درويش ينجر بالزان والسويد ، لكن زبائنه يومها كانوا من الأغنياء . وقتها أنا رحت وقلت له :

ـ والفقراء يا حاج؟ أنتركهم في الشوارع؟

فذرف ـ ما زلت أذكر ذلك ـ دمعتين وقال :

ـ خلص . . من الآن فصاعداً سأعمر للفقراء . . سأخفض لهم التكلفة والربح . . يجب أن نؤويهم . . حرام!

وفعلاً . ذاك يوم وهذا أخوه ، ما نجر داراً واحدة بخشب الزان أو السويد . . وهذه كم تفرق معكم؟ كثير . . تصور ، كل هذه الدار بخمسمية وستين ألف!

ـ ١٤ ـ

[يرجع أبو مطيع بزبونه العليفرزاتي إلى باب الدار] :

ـ لاحظ الدقة والترتيب . تفتح الباب ، تدخل ، تجد نفسك في المطبخ . وهذه الناحية مدروسة بعناية فائقة ، يوم ذهب الحاج درويش إلى مكتب الأستاذ رستم الكشك بلبن وقال له :

ـ أريد أن أؤوي الفقراء!

قال رستم :

ـ على راسي فوق عيني الفقراء .

وأضاف :

ـ يجب أن يكون المطبخ وراء باب الدار مباشرة!

فاستغرب الحاج درويش وقال :

ـ كيف ذلك؟ ولماذا؟

فقال رستم:

ـ الفقير يدخل بيته: يَدٌ من الأمام ويد من الخلف. تستقبله زوجته بالصفق والرقع: أين اللحمة؟ أين الكندرة؟ أين اللبن؟ أين البطيخ؟ فيقول لها: أفٌ! وينهرها، ويقول لها: اتركينا منك ومن طلباتك، وقومي هاتي لي شيئاً آكله. فتقول له: الطبخة التي أحضرتها جنابك على النار!.. فينهرها مرة أخرى ويقول: طيب طيب.. أنا رايح إلى المطبخ. ويذهب بحجة انه يريد ان يأكل أي شيء يجده في النملية.. يفتح باب الدار واللي بيحب النبي يخلي.

ـ ١٥ ـ

[أبو مطيع وحده.. يتابع حديثه معتقداً أن الرجل العليفرزاتي ما يزال وراءه]:

ـ ومن المطبخ، رأساً، إلى غرفة النوم.. وهنه.. انظر.. العمى.. أينه؟ تفو.. ألف مرة قلت لك يا حاج درويش الهز: تعال نَبّنِ لهؤلاء زرائب.. لكنك لا تسمع.. أعجبك الشغل هكذا؟.. تفوا!..

(ويخرج غاضباً).

كانون الأول ١٩٨٧

بغلة جاسم

حسين علي البكّار*

يؤكد العارفون ان جاسم ورث البغلة عن أبيه، وأم جاسم ـ رحمها الله ـ هي الوحيدة التي كانت قادرة على ردم الفجوة التي حفرتها حماقات البغلة بين جاسم وجيرانه.. وبعد موت العجوز أخذ جاسم يضيق بهذا الإرث الأخرق الذي لا يطاق؛ فهذه البغلة تأكل علفها وعلف غيرها، تكسر نير الفلاحة، تدور بنورج الدِّراس فتتناثر صيجانه، تهدم في احدى جولاتها قبة التبن، تطلق رفسة باتجاه شريكتها في المعلف البقرة فتقعدها عن العمل ثلاثة أشهر.. وجاسم يستجدي الاعتذارات، يقول لهذا «يجب ألا يزعل الانسان من بغلة!»، ويربت على كتف ذلك ويقول «ازرع الرفسة هذه المرة في لحيتي!» فيجيبه والد المرفوس «لو وصل حافرها إلى لحيتك لما تركت في فمك نتّاشاً!».

---

* ـ من كتاب الثمانينات. له مجموعة قصصية تحت الطبع بعنوان «انتصار».

كثر اللغط على جاسم: المختار يتدخل شاكياً ومحذراً جاسم من عواقب أفعال بغلته، فيردد جاسم العبارات ذاتها، فيقاطعه المختار بحنق، فيقول جاسم وهو يتميز غيظاً «يا مختار.. يا مختار.. تريدني ان أضع رأسي برأس بغلة؟؟».

وعلى الرغم من كل أفعال تلك البغلة فان أهل القرية يستخدمونها في الفلاحة، وفي الدراس،.. تجر لهم العربات، والغرّاف، وحجرة تعديس البرغل، وينقلون عليها الماء في الأعراس، والحطب، حيث تكون في مقدمة موكب من آبائها الحمير وأخوالها الكدش، وفي الوقت نفسه يتذمرون من أفعالها.

عصر أمس عاد جاسم من الحقل منهوك القوى.. وجد ابنه البكر طريح الفراش وحول رأسه قمطة مدماة.. سأل جاسم فقيل له إن البغلة قد طبعت حافرها على صدغه. اندفع جاسم صوب قرمة صفصاف، جرها خلفه متجهاً إلى الإسطبل. عزم على رفع القرمة في الهواء ليهوي بها على رأس البغلة، لكن الإعياء منعه فانسحب من الإسطبل بعدما أمطرته البغلة بوابل من نظرات التوسل لجلب العلف.

ومع هذا وذاك أطلق أهل القرية على جاسم اسماً جديداً موحدين بين اسمه واسم البغلة (جاسم أبو البغلة)!

قرر جاسم فعل شيء يتخلص من خلاله من البغلة ومن اللقب.. ركبها ومضى على طريق منبج ليبيعها هناك في بازار الثلاثاء..

قبل أن يغادر موكب جاسم القرية استوقفه هلال وقال له:

ـ ألا تخاف الله يا جاسم؟ تركب بقرة؟!

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إنك راكب البقرة!

ـ أنت تخرّف.. افرك عينيك ثم انظر!

ـ أنت حر.. أقول إنك تركب البقرة بدل البغلة.. اذهب إلى البيت وتأكد من ذلك بنفسك.

مد جاسم يديه إلى رأسه ليتأكد من مسألة استجدت للتو، وهي: هل إن رأسه ما يزال عالقاً بين كتفيه؟ وحين أيقن من ذلك حدق في مطيته ملياً، انتصب لونها الرمادي أمامه.. اخذ يمسح ببصره جسد البغلة من الرأس حتى موقع إليته، ثم استدار إلى الخلف فارتطم ناظره بعجيزتها السمينة، وبذيلها الذي ما ينفك يكش الذباب عن القروح الناجمة عن الضرب. انحنى أماماً حتى اصبح رأسه موازياً لعنق البغلة، فرأى حوافرها تدق الأرض.. اعتدل في وضع يمكنه من المتابعة.. نظر إلى الوراء فوجد ان الرد لم يعد ممكناً، فالمسافة بينه وبين هلال صارت كبيرة. وإذ ذاك ضحك وقال لنفسه «الحمد لله على أنني ركبت البغلة وليس البقرة كما يدّعي هلال!!».. وزيادة في اليقين انتبه جاسم إلى أن رأس مطيته خال من القرون فاثلج صدره.

لم يستغرق اجتياز الأكواخ الطينية المبعثرة زمناً طويلاً، وجد جاسم نفسه وجهاً لوجه مع فضاء رحب، ثم رأى جمهرة من أهل القرية يلعبون (المنقلة)، وربما وجد في هذا الحشد إشارة ما، لأن هلال زرع بذرة الشك في نفسه.. تعمد الاقتراب منهم، رفع يده محيياً. التفت المتحلقون نحوه، شهق أحدهم وقال وهو يكتم بوادر قهقهة:

ـ إلى أين يذهب خيّالُ البقرة؟

علق ثان كان يمتص كعب سيجارته:

ـ لربما كان هناك سباق للأبقار!

أضاف ثالث:

ـ قد يسابق جاسم بقرته ويسبقها..

الضحك المتواتر مزق قناعة جاسم وهو يحث البغلة على الإسراع؛ تارة ينخزها بعود مدبب مربوط على حاشية السرج، وتارة يهمزها بعقبيه على بطنها.. وحينما أمات البعد أصوات الضحك الكريه أعاد النظر إليها.. تنفس الصعداء وقال مزهواً: «يقولون بقرة؟! ومتى كانت الأبقار تنحدر من أصلاب الحمير؟ هذه

بغلة، والدها حمار وخالها حصان وعمها حمار وعمتها جحشة . . لو قال لي العالم انها بقرة فلن أصدق!».

وبعد ان اجتاز جاسم تخوم القرية ترجل عن البغلة، دار حولها دورات عديدة، رفع قائمتها فرأى النضوة المعدنية فيها وتذكر البيطار المتجول الذي حذاها له . . يومها لم يقل الرجل (هذه بقرة)، بل قال، بعد عراك عنيف معها ليسد فمها بالـ (زيار) ليمنعها من العض:

ـ بغلتك أعند بغلة صادفتها يا جاسم!

فكر جاسم بما سمع، حاول العثور على خيط يمسكه عله يصل من خلاله إلى الحقيقة. لربما كانت مصالح أهل القرية مع بقاء البغلة، حسناً، لكن أن يحولوها إلى بقرة؟ ان هذا يصل إلى حد تحوير حقيقة الأشياء. . قد تكون المسألة برمتها مجرد مزاح ياه؟ واعجبه الافتراض الأخير، فركب البغلة من جديد واتجه في طريقه إلى منبج.

الشمس شولت إلى الرحيل. في المدى المطعم بالسراب وبالظلال كانت أكوام الشيح والكيوان تتناثر على جانبي الطريق الثعباني. ظلال نسوة يحتطبن قرر جاسم ألا يحدثهن، ولا حتى بالإشارة، خشية ان يفتح الملف المرعب، خاصة وانه ما يزال على يقين من أمره.

باغتته احداهن وهي تضع يدها على خصرها بالقول:

ـ هل هذه البقرة للبيع أيها الخيّال؟

ـ هل انت مصابة بالعمى؟

ـ اسأل بقرتك!!

ـ لكنها بغلة وليست بقرة!

ـ هل تشكو من شيء؟

ـ لا.

ـ إذن؟

ـ أتقسمين على أنها بقرة؟

ـ لو لم يكن الأمر واضحاً لأقسمت!

ـ أما أنا فأقسم على أنها بغلة بنت جحش.

ـ انك بقسمك تزور حقيقة الأشياء.

ـ سأزوِّر.. أوكيفما شئت.. بقرة، وسأبيعها، أنا حر.. بقرتي، بغلتي..

ومن جديد عاود جاسم النظر إلى مطيته.. لونها الرمادي، تحت نور الغروب، اخذ يتحول إلى أصفر.. ظلال الأذنين صارت قروناً.. اضطربت الصورة أمام جاسم.. قال بنزق:

ـ قولي شيئاً.. أنت بقرتي أم بغلتي؟

لم يسمع جاسم سوى صوت اصطكاك أسنان البغلة وهي تقرط اللجام.

أعادته الشكوك من جديد إلى التفكير بأهل القرية ومصالحهم في إبقاء البغلة.. من يدري؟ لربما ركب نواف دراجته النارية وسبر الطريق وأوصى كل من صادفه بأن يقول له (هذه بقرة)؟ لكن لا.. نواف عنده دراجة، وهو في غنى عن البغال والحمير وما شابه ذلك.

نظر إلى الوراء فرأى النسوة يحملن أكداس الحطب على ظهورهن.. فكر بالرجوع ثم سرعان ما تراجع عن فكرته: أمام الرجال لم يرجع عن قناعته فكيف يرجع أمامهن مسلماً بما قلن؟ قرر أن يقطع مسافة اخرى يفكر بعدها بما يمكن فعله.

استدار حول القرية التي وصلها لتوه، وعندما تأكد من خلو الطريق قرر العودة بالبقرة / البغلة. ركبته هواجس خرقاء: ماالذي يمكن فعله إذا مارأى أهل قريته ينتظرون عودته قانعاً بما قالوا؟! ثم بماذا يرد على الصبية إذا هم طاردوا موكبه بالحجارة وغنوا وراءه:

يا خيال البقرة يا ولد.

ليش ما بعت البقرة بالبلد؟

أضـواء مصـابيـح الكـاز ترسم تناثر البيوت. أيقن جاسم أن القرية ستزف موكبـه بالضحـك الذي يقري الأعصاب. احتل الغيظ حلقه. أمسك أذن المطية وعضهـا، نفـرت، ركضت، تماسـك على ظهرها.. وحين رأت البيوت هدأت. أسرعت في اجتياز الأزقة لتصل إلى الإسطبل. لم ير جاسم أحداً ينتظره. أيقن انه كان على باطل وانه يمتطي البقرة. رأى زوجته تدخل الدجاج إلى القن، والبقرة مربوطةٌ بعمود المطبخ، وشبحاً صغيراً يدس رأسه تحت بطنها.. ترجل، قال لزوجته:

ـ يا بنت الناس!! أنا طلبت منك احضار البغلة فأعطيتني البقرة.. لماذا خدعتني؟

شهقت الزوجة وضربت كفا بكف.. اقتربت من جاسم فوجدت ملامحه جادة. قالت مستغربة:

ـ إذا كانت صاحبة الرسن التي بجانبك بقرة، فماذا تكون تلك التي ترضع عجلها؟

ـ إن التي ترضع عجلها بغلة.

ـ وهل البغال تلد وترضع؟

ـ في قريتنا يمكن ان ألد أنا أيضاً.

ـ إنك تراوغ.. لماذا عدت؟

ـ كلهم قالوا إنها بقرة.

ـ وأنت، ماذا قلت؟

ـ حلفت بالسيف والمصحف على أنها بغلة، لكنهم لم يصدقوني.

ـ واقتنعت بما قالوا؟

ـ في البداية لا.. لكن.. لا يمكن أن أكذبهم جميعاً وأصدق نفسي.

ـ وعقلك أنت، ماذا يقول؟

ـ ـ يقول انها بغلة شموس لو أطلقت رسنها لهدمت الكوخ حالاً..

ـ وما الذي تنوي فعله؟ بماذا ستجيبهم اذا سألوك عن سبب رجوعك؟

ـ لا أعرف. . لم أعد أميز شيئاً من شيء.

فكرت الزوجة قليلاً ثم قالت:

ـ أنا سأتدبر الحل. دع البغلة وادخل إلى البيت وهات الساطور!

وضعت زوجة جاسم إصبعيها في أذنيها وأطلقت ولولةً خلخلت صمت القبور؛ أطلقت واحدة اخرى، فسرت الهرولة في الأزقة، أضواء تتراقص من فوانيس شاحبة، أجساد تتجمع، رفوش، سطول فارغة، معاول، جلبة مطعمة بالفاجعة. أسئلة تنطلق لا جواب لها سوى استغاثة مبحوحة تطلقها حنجرة زوجة جاسم، لهاث، جاسم واقف والساطور بيده. . يوقف عجلة الأسئلة وهو يرفع الساطور في الهواء:

ـ تذكرت، يا أهل القرية. . في رقبتي نذر قررت الوفاء به، فبماذا تشيرون علي؟ هل أذبح هذه السمينة، أم تلك التي ترضع صغيرها هناك؟

أطبق الصمت على المكان. . سرى همس في الصفوف الخلفية. . تعليقات لا تكاد تسمع «لحم البغال لا يؤكل. . إن ذبحها خسرنا لحم البقرة وخدمات البغلة».

ومن مكان آخر «لو يذبح البقرة! سنشبع إذ ذاك اللحم» «وتظل البغلة تخدمنا».

أعاد جاسم سؤاله فأجابه أحد الواقفين وهو يدفع التاؤب بظهر يده:

ـ اذبح البقرة حتى يكفي اللحم أهل القرية كلهم.

ـ حاضر!

قال جاسم، واتجه صوب البغلة ورفع ساطوره في الهواء. صاح أحد الواقفين:

ـ لا. . هذه البغلة!

سأله جاسم حانقاً:

ـ وتلك؟

ـ تلك بقرة، يمكنك أن تذبحها.

أوقف جاسم عمليته. تأمل الوجوه. ركب البغلة. قال وهويشق الدائرة:

ـ يا عيب الشوم.. من أجل بطونكم تزورون الحقائق؟!

ولكز بغلته ويمم شطر منبج.

تشرين أول ١٩٨٧

الصفقة

حاتم علي*

عند الصباح، تردد خليل في الخروج، وقف خلف الباب طويلاً، نظّم في رأسه دعواه: الانسان وحيد وحزين، وصحبة امرأة تفتح الشهية على العيش، واذا اصر احدهم على السخرية مني، فسأرده بعنف. سأدير ظهري وأمشي، وفي هذا جوابي.

تعبتُ من الوحدة، من الليالي الطويلة، حيث لا قمر ولا أغنيات، أريد ان اسعد بقية حياتي، انني لا أخاف الموت، لكن حياتي مخيفة إلى حد لن يحسه غيري، حتى لو عملوا قصتي فيلماً، وعرضوا فضيحتي على الناس.

مشى نحو بيتها، سار بمحاذاة الجدران، ارتطم بعامود منتصب، أو بمدخل نافر لبناء مغبر، هذه عادته عند المسير، قرب الحائط كان يشعر بالأمان،

---

* - من كتاب الثمانينات. له مجموعة قصصية تحمل عنوان «موت مدرس التاريخ العجوز».

اليوم خاصة، تمنى لو يحصل على قبعة الإخفاء، خلسة انسل في شوارع المدينة، يدعو الله أن لا يصادف أحد معارفه، حتى إذا وصل باب بيتها، في ذلك الحي الأكابري الجميل، حمد ربه، وتمنى لو يصلي ثلاث ركعات، مرر يده على ثنية سرواله الجديد، مسح عرقه المتصبب فوق جبينه بمنديل أصفر.

كان من عادة العرق أن يتسلل عبر حاجبيه الخفيفين، فيضطر إلى ان يغمض عينيه ويفتحهما على التوالي حتى يدور رأسُ محدثه. أصابه الرعب حين فكر في ذلك، فأعاد المسح حتى اتسخ المنديل.

قبل ان يطرق الباب رتب سترته المنسدلة فوق كتفيه، فتذكر خَيَال (المآتة) استغرب هذا الربط، أدار بصره في المنطقة حوله، تحت سياط العادة.. وقع بصره على صناديق القمامة وأكياس الأوساخ المجمعة عند الحاوية، شتم في سره هذا الزمان، وتمنى لو يفعل ذلك علانية. خطر له ان يعود قبل ان يتورط، لكنَّ قدميه اللتين تحبان صعود الدرج قادتاه إلى الأعلى، قدماً إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف، قرأ آية الكرسي، وبسمل، وخبط صدره ناحية الجنب الأيسر، فلم يهدأ قلبه، ظل ينتفض مثل أرنب مذبوح، احس انه يمشي في منطقة غريبة لم يعرفها من قبل، استنكر مثل هذا الإحساس قال لنفسه: ـ الحارة بيتك، دائماً كنت تقضي فيها ليلك، فاصعدْ، القطها وبعدها يأتي الطيران، والحظ يلوح مرة واحدة، ثم يبحر، فاهجر فقرك ووحدتك، هذه فرصتك.. وطرق الباب.. فانفتح..

تعمد أن يدخل بقدمه اليمنى، وان يقول شيئاً في سره، فاستقبلته صاحبة البيت بالترحاب. أطالت النظر في لباسه، وأطال النظر فيها، انبسطت أساريرها فانبسط، أراد ان يغني من الفرح ولأنه يدرك بشاعة صوته، تراجع.

فتش عن كلمته الأولى.. أيّة مقدمة ينتقي؟ تذكر أنه سمع ذات مرة عن سر من أسرار هذا المخلوق العجيب، فلقد قيل: لا تأتيها مباشرة، فالمرأة تحب المداورة، حسن! قال لنفسه، ولكن كيف؟ هل أقول إن المنطقة جميلة؟ والجو على

أحسن حال؟ قالها واتكل على ربه، ردت عليه بالإيجاب فجلس، ثم لعن نفسه لأنه استبق دعوتها. انساب عرقه مباشرة إلى عينيه، لعن حواجبه وحظه الذي أعطاه من كل شيء قليلاً، وغير مرة قال لربه: اعدُلْ! فعاد واستغفر!

ـ أريد أن أطلب ابنتك.

ارتفع حاجبا المرأة الكثيفان، وزمت بؤبؤي عينيها، فاستدرك.

ـ أقصد، يدها فقط!

وقبل أن يتابع، حكت له عن أملاكها وأموالها، وعن قريبها الذي يملك مالاً لا تأكله النيران، وكيف ان له قدماً في الحياة واخرى في القبر، جعل الله في قدوم خليل، مقدم السعادة. فأجابها بالمثل:

ـ أنا أيضاً أحب الصراحة، لأنها تنجينا من الوقوع في حبائل كذبنا والعياذ بالله. فقد أقول لك: اسمي فتحي محمود فتحي، مثلاً، وعملي موظف في المالية، مثلاً. بينما يكون اسمي الحقيقي خليل، وعملي زبال ليل، فنتحدث عن الأموات والأحياء وما على ظهرها، فتنسين وتسألينني: الاسم بلا زغرة؟ فأخطىء وأقول لك اسمي الحقيقي، عندها تسودُّ وجوه وتبيضُّ أخرى. لذلك سأكون صريحاً أنا الآخر وأقول: اسمي فتحي محمود فتحي، موظف في المالية.

ترددت اللفظة الأخيرة في جمجمته، وكان لها صدى عجيباً، بعث الرعب في نفسه، ترددت الكلمة مرات ومرات، تطايرت ـ تناثرت، وفي كل بيت تساقطت أحرفها، وأحدثت انفجاراً.

واحتارت المرأة، بين ان تغضب، او تزغرد، فإذا فكرت في نصف الجملة الأول، اغتمت وشتمت الوظائف والموظفين، واذا تناست البدء، ويممت وجهها نحو الشطر الثاني، انطبعت الكلمة في وعيها بأحرف من ذهب.

وقبل ان تستيقظ من تأملاتها، بدأ هجوماً جديداً:

ـ الشبان اليوم متشابهون مثل المسجلات والمراوح والأحذية، مفبركون حسب ماركة مصممة مسبقاً، ومن يعثر على شاب مختلف كمن يعثر على كنز!

لحقت اللفظة الأخيرة سابقتها، احدثت انفجاراً آخر، فصرخت المرأة البدينة، وقد فشلت في اخفاء فرحتها:

ـ ارقصي يا وفاء.. جاءك الكنز.

وجاءه صوتها من المطبخ رفيعاً ممطوطاً، مثل مواء قطة ـ تذكّر كَمْ تزعجه القطط والكلاب أثناء عمله ـ فانتصب امام عينيه برميل قمامة، نفض رأسه يبعد الصورة عنه، لولا بدانة المرأة المفرطة، لقفزت من مكانها.

ـ لا يمكن أن أرقص يا أمي، فقد تنسكب القهوة!

وضحكت الأم:

ـ دمها خفيف، ليست كبنات اليوم.

أدرك انه مدعو لقول شيء، بدافع المجاملة، ومن تحت إبطه كما يقال، سلّ كذبة أخرى:

ـ لقد قالوا لي إنها فريدة من نوعها.. لا أخت لها.

ـ لها اخت، لكنها متزوجة!

واقتحمت الفتاة الغرفة، تحمل قهوة أهلاً وسهلاً..، كانت طويلة وناحلة، ذات شعر منفوش مائل إلى الحمرة، فشمخت بين عينيه مكنسة ذات عصا طويلة. نفض رأسه مرة أخرى، واستغفر ربه، متجاهلاً دهشة المرأة ذات الحاجبين الكثيفين.

ـ تفضل، صنع يدي.

ـ سلمت يداك. قهوة رائعة لم أذق مثلها من قبل. فالبن هذه الأيام مخلوط مع نشارة الخشب المطحون، قاتل الله التجار.

وشرب. أحس ان ثعبانا يمشي عبر حلقه. وبصعوبة طلب سكراً، عل السكر يخفف الطعم اللاذع فانطلقت الفتاة كالمهرة.. مالت المرأة عليه، أحس أنفاسها الساخنة المشوبة برائحة البصل:

ـ تحبها حلوة؟

ـ ومن لا يحبها حلوة يا عمتي العزيزة؟
ـ ولكن الأشياء الحلوة تكلف طالبها.
ـ أنا جاهز لكل غال ورخيص.

عادت الفتاة، تسبقها أغنيتها: البلح عالي يا ولد، والسكر غالي يا بلد. عندها فقط ندم لأنه لم يغنِّ عندما أحس برغبة في الغناء. ضحكت حين رأتها يصغيان بوله، وقد صار لون وجهها باحمرار شعرها:

ـ السكر غير موجود في مكانه.

فقالت الأم:

ـ آه، لقد نسيت؛ يقولون لا يجوز أن تعلم اليد اليسرى مافعلته اليمنى من خير، ولكنكَ أقرب من اليد، القصة أن امرأة فقيرة مرت بنا فأعطيناها السكر لتذيبه مع الماء وتسقي أطفالها، فالحليب مفقود هذه الأيام. كان الله في عون الأطفال!

وتحدثوا عن السوق، والأولاد، وحالته المادية، وأحوال الدنيا التي مالت، وكررت دعوتها بشرب القهوة، فلا رد الله من رد رزقه، انشغلوا بالنقاش فتطايرت الأيدي، وتحركت الأصابع، وصار بالإمكان رؤية قطع صغيرة من البصل على الطاولة أمامهم.. دخل ولد، ووقف يتفرج، بعد انتهاء الجدل. قال:

ـ أمي تريد فناجيننا وكؤوسنا وكل أغراضنا!

كزت المرأة البدينة على أسنانها، أصفر وجهها، تلعثمت:

ـ الآن يا ابن العاية؟

وانزاح طرف العصابة عن عينيه، أدهشه ما سمع، ورأى فجأة جدرانا كالحة، ومقاعد أطلت حشوتها، فأحس بقوة غريبة تندفع في شرايينه وتطلق لسانه.. وخرج الولد بالفناجين والكؤوس والملاعق، وكأس الماء، فاقتربت المرأة منه تكاد تركع بين قدميه:

ـ لقد استعاروا منا هذه الأشياء ذات يوم، وظلوا يستعيرونها كلما جاءهم ضيف، حتى ظنوا أخيراً أنها لهم، أرأيت وقاحة كهذه؟

وقبل ان يجيب، أدارت المرأة دفة الحديث، بمهارة البحار حين يكاد الموج يطرحه:

ـ ألم يترك لكم المرحوم شيئاً؟

انساق وراءها، وقد ازدادت ثقته بنفسه:

ـ ترك لنا الشرف والسمعة..

ولما تحجر بؤبؤ عينها مرة أخرى، عاد اضطرابه إليه، فاستدرك:

ـ ووسام!

صرخت المرأة:

ـ من الذهب؟

ـ مطلي بماء الذهب.

ـ ومن الداخل؟

ـ هذا ما لا أعرفه، قالت لي أمي يومها: إن الأيام القادمة ستحكّه، وعند المحك يبان المخفي.

زمت المرأة شفتيها كمن ينطق حرف (أو) بشكل موصول، وظلت على هذه الحالة مدة من الزمن ادرك خليل خلالها ان المرأة تفكر، وتعاني وأنه مطرود لا محالة، وكما يحدث عادة في القصص، خاصة عند المواقف الحرجة، كحالة خليل هذه، يتدخل فجأة من يقلب الميزان:

اندفع رجل ذو شاربين كبيرين خشنين، كالعاصفة حين تدخل حقلاً فتدوس وروده، ضرب كفاً بكف ثم شد شعره كالمجنون:

ـ ما هذا؟ ألم يعد هناك ذوق؟ هل أنتظر سنة حتى أحصل على أجرة شهر؟

وكمن تلقى ثلاث صفعات متتالية وأخرى على الرقبة، وقفت المرأة البدينة

تنقل بصرها بينهما، أما خليل فكان كمن دُس رأسه عنوة في بركة ذات صباح تشريني. ونطقت المرأة اخيراً. فتوسلت:

ـ ارجع في وقت آخر. عندنا ضيوف.

ـ ولهذا بالضبط جئت يا عيوني ولن أخرج إلا بأجرة البيت كاملة.

قال خليل لنفسه: فلتلعبْ دور البطل، إن ما يعجب النساء في الرجل هو تمثيله لهذا الدور. ولكن لا تذهب في ذلك بعيداً، فتخسر، والمرأة لا تحب البطل الحقيقي، لأنها تفقده..

ـ ما القصة يا سيد؟

ـ الناس صاروا بلا دم!

ـ من الجوع يا معلم.

ـ أنت الآخر تتحدث عن الجوع؟ يا حسرتي عليكم، ويقولون إنكم عثرتم على كنز!

ساد صمت مهيب، استنجدت عينا المرأة البدينة بمن يشرح لها، كانت كمن يقف أمام جدار.

ـ هيا.. هيا.. اضحكوا على عقلي، لتأكلوا حقي. أين الخزنة؟

ـ خزنة ماذا؟

ـ المالية!

ـ أي خزنة ومالية وأي كنز؟؟

ـ ماذا إذن؟ طلعت جرة فخار يا روحي؟..

وأعقبها بضحكة مجلجلة، ثم مد يده فقرص فخذها، ودفع كوعه في خاصرتها، يتلمس لحم المرأة البدينة فانتفضت:

ـ اخجل على دمك، يوجد غريب.

ثارت كرامة الرجل:

ـ وهل فعلنا الحرام لا سمح الله؟

ثارت كرامة المرأة أيضاً، ولكل منهما كرامته:

ـ وهل أضحت الدنيا بلا رجال؟!

وأطلت رؤوس الجيران من الأبواب والنوافذ، ومن كل شق آخر، وأقسموا أغلظ الإيمان أنهم سمعوا الأخبار المؤكدة عن الكنز والمالية وكل ما يثير الشهوة، ويفتح الطرقات.. ومن بين الجمع تقدم الولد مع الكؤوس والفناجين وأشياء أخرى:

ـ لم أسمع الخبر إلا متأخراً. فاستردوا ممتلكاتكم، مع الشكر لأنكم تفضلتم وأعرتمونا هذه الأشياء التي تملكونها منذ زمن بعيد.. والتي يعرف الجميع أنها لكم أنتم فعلاً.

أشرقت في عيني المرأة ضحكة لا رادّ لها، ازدادت حين أكد الجميع صحة ما قيل، وتبرع بعضهم بالقسم على الكتاب الكريم، ولما لم يجدوا نسخة في الحارة كلها، تناسوا الفكرة وتأسفوا على الوقت الذي أهدروه في هذه القضية الجانبية، فبادر خليل إلى طمأنتهم، مؤكداً انه لا يشك في أي كلمة قيلت.

خطب فيهم شارحاً سعادته، عادّاً نفسه من الرجال القلائل المحظوظين في هذا العالم، حمد الصدف والأقدار التي قادته إلى هذا البيت الكريم.. وفيما هو يحدثهم، تذكر تلك الليالي الباردة حيث كانت الفتاة تروح وتجيء خلف النافذة، كأنها تقول له: طق موت.

ولما رأى صاحب البيت جموع الناس تقدم الطاعة لخليل خجل من نفسه، فاعتذر:

ـ لا تؤاخذني يا أستاذ. ولكنه حقي، وصاحب البيت/ الحق لا يؤاخذ.

وقالت امرأة:

ـ هنيئاً لكم يا جيراننا، جاءكم السعد.

فردت المرأة البدينة:

ـ الطيور على أشكالها تُصاهر، والغالي ثمنه غال.

وقال ثالث:

ـ لا ترهقوا مدير المالية، هذه ليست حفلة خطوبة فما زالوا يتحدثون.

فأجابه رابع:

ـ وهل هناك داع للحديث؟ الأمور جيدة والحمد لله! دقائق ونأتي بالدفوف والدربكات والملبس..

ومالت جارة على أذنها:

ـ هل عنده مال كثير؟

فأجابتها أم العروس، متعمدة رفع صوتها:

ـ لا تحصى يا روحي، وعين الحاسد تبلى بالعمى.

وسأل شاب متخرج حديثاً من الجامعة:

ـ ويده طايلة؟

فأجابت:

ـ حتى الحلق يا جار، وشوكة تخز حلق من لا يصلي على النبي، وأنخن شارب يركع على حذائه!! أحس خليل، انهم يخلعون ملابسهم، قطعة قطعة. وأراد ان يضحك حين تذكر نفسه تلك الليالي مخبئاً وجهه عن أعين الناس. كبح رغبة جامحة في ان يبصق عليهم. وانسحب الجميع حفاظاً على راحته، عيونهم تكاد تسحبه وراءهم، العيون نفسها التي كانت تهرب قرفاً من منظره. أذهله ما حدث. فجأة، وجد نفسه في موقف لم يجرؤ على تصوره ذات حلم. ورغم ما جرى، لم تنسَ المرأة كيف تستر ما انكشف:

ـ ها أنت ترى أن البيت ليس ملكنا. لكنني لم أكذب عليك. لقد كان ملكنا فعلاً. وبعد وفاة المرحوم البيك، اضطررنا لأن نرهنه عند ذلك الرجل..

وارتج عليها الأمر. فلم تجد ما تقوله. بادر خليل إلى تهوين وتبسيط المسألة:

ـ الدنيا لا تفرق بين ابن الأصول وبين البندوق يا عمتي. عندما تريد أن

تخبط فهي تخبط الكل . . فلا تتحرجي لأنني أنا ايضاً، أُصبت بتلك الخبطة!

اقتربت الفتاة منه، لم تنهرها أمها، أو تلعّب لها حاجبيها الكثّين، فازدادت اقتراباً، حتى اخجلته، وقالت بدلع:

ـ على كل حال، سنـذهبُ من هنـا. ولن نتركـك وحـدك يا أمي. أليس كذلك يا فتحي؟

للحظـات ظنهـا تحدث شخصـاً آخـر، لم يكن معتـاداً اسم فتحي هذا، وانبرى يقنعهم بضـرورة التمسـك بالبيت شارحـاً لهم أزمـة السكن الحـادة التي تعيشهـا البلد، فاستنكرت الأم الـدعـوة، خائفـة من الـوحـدة، فأقسم خليـل بالطـلاق، وشتم أولاد الحـرام، داعيـاً إلى التضامن مع الأقارب، وأحست المرأة انهـا تجلس على نار، فقـامت وقعدت، واخيراً قالت، والشرر يتطاير من عينيها، فيشعل، في قلب خليل، الحريق:

ـ وبيتك؟ بيت أهلك؟ بيت أبيك؟

ـ إنه مرهون يا عمتي، بالخبطة ذاتها التي رهنتم بها بيتكم.

وزمت المرأة شفتيها كأنها تقول الحرف (او)، طفح في عينيها بله وغباء، بدا شحوبها اكثر اكتنازاً، وابتعدت الفتاة عنه حتى كادت ان تقع عن الكنبة. سكتت الأم عن الكـلام وقـد اكتشفت ان محدثهـا يلف ويـدور، وانهم وقعـوا على كيس فارغ، في قاعه ليرات وقروش، وحسب. . وكالغريق، تعلقت بما تبقى من حطام العريس المنتظر:

ـ ولكنك موظف ممتاز في المالية، لنا قريب يعمل هناك أيضاً ويقبض كثيراً. إذن فأنت مرتاح؟

تدخلت الفتاة:

ـ في أي قسم تعمل أنت؟

ـ وفي أي قسم يعمل هو؟

ـ ليس في قسم الضرائب.

ـ أنا أعمل في قسم الضرائب!

وتنهد مرتاحاً، فعاجلته الأم:

ـ تذكرت إنه يعمل في قسم الضرائب بالذات.

وغمزت ابنتها، فعرفت ان أمها تعد له حفرة:

ـ ماذا كان اسمه؟

سألته، فرد عليها بسؤال:

ـ ماذا كان اسمه؟

ـ لقد نسيت.

ـ وأنا نسيت.

ـ انظر إلى ذاكرتينا.

ـ إننا ننسى.

ـ وماذا تعمل؟.. اذا كنت تذكر ذلك..

حار:

ـ أعمل.. عملاً.. أنا مدير القسم تقريباً..

انفلتت العبارة رغماً عنه، احس انه يبالغ ويكذب بصورة مكشوفة، تمنى ان يلتم الجمع مرة اخرى، وان تزعق امرأة:

ـ مدير على وزن وزير..

وصرخت الفتاة، تساعد أمها في الحَفْر:

ـ لقد تذكرت. انه مدير القسم ايضاً..

ـ صحيح؟؟

وهزت المرأتان رأسيهما.. أكثر ما أثار غضبه وحنقه، ذلك الشعر الأحمر!

ـ ألم أقل لكما إنني عوقبت ونُحيت جانباً عن الكرسي؟

ـ ومتى حدث هذا؟

ـ عندما أصبح هو مديراً.

لطمت المرأة وجهها، وندبت الفتاة حظها، واقترحت الأولى على الثانية ان تعفر وجهها بالتراب، ولكن انقطاع المياه منع الفتاة عن الفكرة.

ـ ما الأمر يا عمة؟

ـ عمى الدبب!

وانثنى خليل يستجدي عمته:

ـ أرجوك لا ترديني خائباً..

وفردَ على أصابعه ما يملك من أوراق مالية، وأقسم انه ليس موظفاً على الإطلاق، ولن يكون. وكشف لها انه قد أخفى حقيقة عمله، رغم ان العمل بصفة عامة ليس عيباً، خاصة إذا كان في الليل وأطال شرح فكرة ان الليل ستار العيوب، فقالت المرأة: ان هذه الأيام تجعل الواحد يتمسك بالليرة بأسنانه ويديه، وأكّدت الفتاة انه لا يعيش غير الشاطر، فوعدهما بتحسين أحواله، وأفضى لهما بسره، قال انه يرى مستقبله أمامه وسيسير إليه حتى لو قطعوا رجليه الاثنتين، ومالت الأم على ابنتها تسألها الرأي، فأكد خليل وقد سره تطور الأحداث:

ـ آخر كل شهر، سأسلمكِ راتبين اثنين، قولي نعم.

فقالت الأم نيابة عنها: نعم. وتساءلت الفتاة عما سيقوله الناس، فشرحت الأم الموقف:

ـ عندما يكسب الرجل المال الكثير، لا يهتم الناس بمصدره، وعريسك رجل محترم، موظف في المالية له صولة وجولة، ورأسنا مرفوع على جيراننا باذن الله.

فزاد خليل واستفاض:

ـ الناس تحب أن تصدِّق بسرعة، فلنتركهم كما يريدون.

ونهضت الأم تتأكد ان لا أذن تسمع ولا عين ترى، ولا لسان يتحدث. وضحكت فرحة بعريس ابنتها موظف المالية الكبير، وابتسم خليل لحظّه الذي

ضحك له، فأعطاه فتاة ستكون جميلة بعد جزّ شعرها. أحس بالارتياح لمصاهرة عائلة محترمة، تمنى لو يستطيع أن يتناسى الجدران الكالحة، وحشوة المقاعد الظاهرة. ولكن المعرفة جهْلٌ ثقيل كما يقال.

وتهيأ خليل للخروج رافع الرأس، بعد ان كان يدخل الحارة ليلاً، ملثماً، يقوده بغل نعسان، فطلبت عمته قراءة الفاتحة، كي يفتح الله عليه، فيكرمه، وعندما حاولت ان تناديه باسمه، اكتشفت انها قد نسيته.

فقالت خجلة:

ـ أوصيك بالحرص وبالستر.. كي نتشرف بك يا... عفواً الاسم بلا زغرة؟

فأجاب:

ـ خليل حسين، زبال ليلي بنص الشام.

١٩٨٦

إخراج روح

أحمد عمر*

(١)

لليوم الثالث والانتظار يسحلني في مبنى البلدية الأصفر كخريف أزلي. ثلاثة أيام مريرة عرفت خلالها ان عدد بلاطات أرضية البهو ستمائة وخمسٌ وأربعون بلاطة من القطع الكبير، وان رئيس البلدية يتردد على دورة المياه كثيراً، وان منديل الحاجب متخم بلزوجة البصاق، وان . . ، وانني مخترع شتائم مفلطحة لا يمكن ان تخطر ببال أكبر متشرد في هذه المدينة الشمطاء.

الساعة اقتربت من الواحدة. غرفة النفوس خلت من المراجعين. . انها فرصتي اذن . . فلأحزم شجاعتي. . حزمتها:

---

* - من كتاب الثمانينات. ليس له عمل قصصي مطبوع حتى الآن.

ـ أبو دهاس!

ـ شوف لنا ها المعاملة أبو دهاس!

غطى على صوتي صوت هذا المراجع وهو يكبس ورقة نقدية في يد دهاس المنفوخ الجالس بجوار أبيه يتلمظ بقطعة شيكولاته سالت لها أمواج لعابي . . الملعون دس الورقة النقدية في جيبه بلا مبالاة خانقة . ترى هل يحتفظ بها لنفسه؟ لا لا . . لا يوجد أولاد في هذه السن يستطيعون إدارة هكذا مبلغ . . المراجعون الذين تنجز معاملاتهم رجال . . لهم كرافيتات، ومعهم أوراق نقدية كثيرة . . أصواتهم خشنة، قاماتهم طويلة .

سأرفع صوتي هذه المرة . . وسأهدد به :

ـ أبو دها . .

ـ مرحبا!

تحية أنثوية ناعمة هزمت كل جهورية صوتي التي تعبت في إعدادها .

ـ أهلاً وسهلاً بالآنسة . . تفضلي . . أهلاً وسهلاً!!

وقفت على أطراف أصابعي أتطاول وراء الطاولات العالية، أمد نظري بين قضبان الحاجز الخشبية . تابعتها وهي تجلس على الكرسي، بجلوسها زحف لمعان ساقيها نحو الأعلى . . الحياء أخفضني نحو الأسفل . . ، أما أبو دهاس فصار يدّعي النظر إلى السجل الأسود الكبير أمامه في حين راحت عيناه تنهبان لمعان الساقين العاجيتين . تصورت أمي مرتدية فستاناً قصيراً كهذا، فداورتني ضحكة على الرغم من الكآبة التي لم تفارقني طوال اليومين الماضيين . ساقا أمي مقوستان كقرني عنزة . . مدرس العلوم يقول ان تقوس الساقين عند الانسان يعود إلى سوء التغذية في مرحلة الطفولة .

بدافع الحذر السيقاني لمح أبو دهاس رأسي :

ـ هيه انت . . ماذا تفعل هنا؟

ـ انا . . ما . . با دا . .

ـ بماذا تبرطم . . قل ماذا تريد؟

استدعيت شجاعتي لاكزاً الكلمات المختنقة في أسفل حنجرتي :

ـ إخراج قيد . . أبو دهاس . . إخراج قيد!

ـ من أجل ماذا؟

ـ من أجل المدرسة . . أنا طالب صف تاسع . .

عاد أبو دهاس الى السجل الأسود . عادت إليّ الكآبة التقيؤية وحامت في رأسي كل الأدعية التي امطرتني أمي بها صباحاً . .

ـ أبو دهاس . .

ـ من . . ؟ أنت؟ . . أين دفتر عائلتك؟

ـ ضائع .

ـ ضائع!! . . وهل يضيّع احد دفتر عائلته؟

ـ الحقيقة . . القصة طويلة سيدي سأوجزها لك . . عمي كان مواطناً في حين والدي لم يكن كذلك . وطمعاً في بطاقات التموين أولاً وتثبيت تسجيلي في المدرسة ثانياً سعى والدي للحصول على «المواطنة» وقضى المسكين السنوات الخمس الأخيرة من عمره زاحفاً بسنواته الثمانين بين المحافظة والمنطقة والناحية وقريته لكي يبرهن أنه شقيق عمي . . المواطن الذي كانت كنيته قد تغيرت من فرحان إلى فرمان بخطأ مطبعي . . وكان عرساً يوم حصلنا على الدفتر ، فقد ذبح والدي الدجاجتين اللتين كانتا تمداننا بالبيض . لكن عينيه لم تكتحلا بالدفتر طويلاً . . فقد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة . . أعطاك عمره على إثرها . . وها قد مضى على وفاته عام دون أن نعرف في أي حجر من حجور الشياطين كان يحتفظ بدفتر العائلة . . فتشنا الـ . . .

ـ كفى . . كفى . . صرعتني . اتعرف حميد اللعاج؟

ـ لا . . لا اعرفه .

ـ عرض حالجي في أول الشارع على اليمين . . اذهب اليه!

ـ ماذا اقول له؟
ـ دوخت رأسي . . قل أرسلني ابو دهاس من أجل اخراج قيد .
ـ فقط؟
ـ . . . . .

ـ ٢ ـ

سأل اللعاج : ما هو رقم مسكنك؟
ـ رقم مسكن!
ـ طيب . . طيب في أي حارة تسكن؟
ـ الشرقية .
ـ الشرقية . . الشرقية . . قلت لي إن اسمك فرحان فرحان . . حسناً يافرحان اذهب إلى تلك المكتبة واشتر طابعين .
ـ أي نوع من الطوابع تريد؟ . صفراء . . حمراء . . خاكية؟
ـ قل له طوابع إخراج قيد .
طرتُ ذاهباً إلى المكتبة فرحاً بتقدم مسيرة إخراج القيد، وعدت طائراً . . معي الطوابع وزوبعة من اللهاث .
ـ تعبتُ . كثيراً حتى عثرت على رقم مسكنك .
ـ شكراً استاذ حميد . . الله يعطيك العافية ويطول عمرك وينجح أولادك . و . . .
ـ الصق الطوابع هنا وخذها إلى أبو دهاس .
ـ هل سيطول الأمر أستاذ حميد؟
تناولت كنزي الثمين اهمُّ بالانطلاق لكن صوت اللعاج استوقفني :
ـ هيه لقد نسيت الـ . . . «ودعك إبهامه بالسبابة» .
ثمن ماذا يريد هذا الملعج؟ الطوابع اشترتيها أنا بليرتين ونصف . . ربما

يريد ثمن هذه الورقة الصغيرة، أو ربما ثمن الكلمات المعدودة التي كتبها بخطة «المفشكل»؟

ـ كم تريد؟

ـ خمس ليرات!..

رغم الثروة الكبيرة التي استولى عليها اللعاج لم أحقد عليه.. لم أشتمهُ.. المهم ان انتهي.. ثم إنه القلم يرفع بيوتاً لا عماد لها.. هكذا كان والدي يردد على مسامعي دوماً محرضاً إياي على الدراسة والاجتهاد حتى أصير أستاذاً ذا قلم.. وأبني مكان بيتنا الطيني العجوز بيتاً لا عماد له.

ـ ٣ ـ

وصلت لاهثاً إلى أبو دهاس. نبح:

ـ أين والدك؟

ـ أعطاك عمرهُ كما قلتُ لك من قبل سيدي.

ـ عمك؟

ـ كان على خصام دائم مع والدي لأنه لم يزوج ابنه أختي ولم يحضر جنازة والدي فقد استمرّ في مقاطعتنا حتى بعد وفاته!..

ـ خالك؟

ـ مهاجر.

ـ هو هو.. فلقتني! من هو ولي أمرك؟

ـ امي.. وهي عجوز كفيفة «ساقاها مقوستان جداً»!

ـ بصراحة.. يا فرحان العملية ستطول. ألا ترى ان المكتبة تزخر بالسجلات.. اذهب الآن انتهى الدوام ولا تأت غداً إلا ومعك ولي أمرك!

- ٤ -

امي تقول بسذاجة واثقة: اعطه.. سينتقم الله منه في الآخرة. ولكن ياأمي عنزتك ذات القرنين المقوسين لا تمنحنا حليبها إلا..

[ترى هل تقوس قرون الماعز عائد ايضاً إلى سوء التغذية!؟]. ويا أمي عيناك ضعفتا عن متابعة رأس إبرة الحياكة فضلاً عن مؤخرتها.. ويا أمي مواسم العمل الصيفية بعيدة فنحن في الشتاء.. وفي الشتاء يربط الناس «جزادينهم» جيداً بالحرص نفسه الذي يربطون به حبال سراويلهم.. ويا أمي تقولين أعطه وكأنك قاعدة على كنز.. وابو علي جارنا يقول لي: أبو دهاس لن يمشيها لك إلا «بالبنكنوت..» اسألني انا اعرفه.. عرقل معاملة زواجي الثانية سنة كاملة لأني يبستُ رأسي ولم ادفع لهُ.. حللتُ مشكلتي بدون دفع.. اتعرف كيف؟ تزوجتها مدنياً..

طيب أنا لا استطيع تزوج المدرسة مدنياً.. ويتابع أبو علي: البالوعة ابن عديمة الشرف.. لديه الآن «فيلا» تأخذ العقل.. كلها اموال حرام..

ودهاس المنفوخ له خدان متورمان مثل فلقتي بطيخة وقطعة «الشيكولاتة» التي في يده كانت أكبر قطعة أراها في حياتي.. كبيرة مثل رغيف خبز.. طيب يا أمي سأعطيه.. سأستدين.. ليس امامي إلا هذا.. سأذهب إلى أحمد البقال.. كان صديقاً لوالدي... لا لن يقرضني.. انه بخيل.. سيقول البضاعة كاسدة، ولا يوجد لديّ نقود.. لا ليس بخيلاً عائلته كبيرة. عم عبده بائع اللبن لا يوجد غيره رجل طيب مثل العسل كان يعود الوالد يومياً اثناء مرضه ويأتينا بلبنه الرائع.

- ٥ -

- عم عبدو.. عم عبد الرحمن!..

صحيح نسيتُ أن سمعه ثقيل.

ـ عم عبدو!

نظر نظرة بليدة وهو يغرف اللبن من أحد الأوعية:

ـ نعم.. ماذا تريد يا بني؟

ـ ألم تعرفني يا عم عبدو؟!..

ـ من انت؟.. لا.. ماذا تريد؟

ـ أنا.. لا شيء.. لا شيء..

ابتسامتي تخثرت على فمي.. لهفتي ذبلت.. ليس امامي سوى العودة إلى البيت واللعنة على أبودهاس والمدرسة: ومديرها برأسه الصلعاء الكروية وعلى ذاكرة عم عبدو الكسيحة.

ـ ٦ ـ

فكرة.. جميلة رائعة.. نبتت في رأسي هذا المساء:

سأشتري صندوقاً جيلاً.. شريطين ملونين. علمنا مدرس الفنون كيف نرتب صناديق الهدايا.«المسبحة» التي صنعها الوالد من نوى حبات الزيتون.. صحيح ستكون هدية متواضعة لكن الوالد كان قد ابدع في نحتها.. وصبغها.. كان يعطرها باستمرار.. انها إرثه الوحيد ـ بعدي وبيته الطيني ـ ساختار أجمل بيت شعر قيل في المدح اكتبه بخطي الجميل وارفقه بالمسبحة.

الفكرة ارتاحت في رأسي.. صممت على تنفيذها.

ـ ٧ ـ

استيقظت قبل ديوك الفجر.. قبل أمي.. اليوم يومٌ مشهود..

لم أكن قد حزمت امري بشأن اختيار البيت الشعري.. القصاصات التي كتبتها البارحة لا تزال أمامي يجب ان احسم الأمر الآن.. لا داعي للحيرة..

اغمضت عيني . . خلطتهـا . . اخـترت واحـدة . . وضعتهـا في العلبـة دون ان انظرها ـ ابو دهاس وحظه . ربطت الشريطين ببراعة تفوق براعة مدرس الفنون .

ودعتني أمي : الله يفتحها في وجهك يابني .

ـ ٨ ـ

الساعة صارت الواحدة . . غرفة النفوس خلت من المراجعين . . قلبي راح يدقُ بعنف . .

ـ اين والدك؟

ـ رفعت له الصندوق :

ـ هدية!! . . ستسعد دهاس!

ـ ماذا تراه يظن بداخله؟ . . تحفـة فنيـة . . مبلغاً من المال . . ربما في أسـوأ الاحتمالات شيكولاته للمنفوخ دهاس .

دمدم وهو يفك شرائطها بلهفة : آه منكم أيها الجيل الجديد . . آه!

الشريط الأول . . الثاني . . انفتحت العلبة . جثة المسبحة المسكينة جعلته يقلب شتفيه ممتعضاً . . تناول القصاصة المطوية . . لا بد انه يحسب ان في داخلها نقوداً .

فتحها . . وجهه انقلب فجأة . . صرخ :

ـ ما هذا؟

تناولت من يده القصاصة المطعونة في وجهي . .

قلبي . . سقط بين قدمي وأنا أقرأ :

«إلى حضرة وجناب أبي دهاس المحترم :

«أنت كلب . . ابن كلب» .

المبدع ذو الضفتين

مصطفى الحاج حسين*

قررت أن اكتب قصة قصيرة: منذ سنوات وأنا افكر بهذا المشروع.. وكلما همت أبعدتني مشاكل الحياة، وحين تعاودني الرغبة في الكتابة أجد أفكاري قد تغيرتْ أو تطورتْ أو فقدتْ إيماني بها، فأعودُ من جديد إلى دوامة البحث عن موضوع. سأفاجيء الجميع.. أصدقائي ومعارفي يعرفون أني شاعر فقط.. سيُدهشون: كيف تحولت إلى كاتب قصة؟ هل اعترفتَ بفشلك في الشعر أخيراً؟. أنا لم أفشلْ في الشعر.. أنا شاعر حتى العظم! منذ بدايتي الشعرية أطلقت على نفسي لقب (رب الشعر). وأنا مطلع ومتعمق في علمِ النفس، ولهذا لا أرى في ذلك غروراً أو نرجسيةً أو شيئاً من جنون العظمة، والمبدع الموضوعي لا يجد حرجاً في الإعلان عن نفسه إذ لا بد لكل مبدع حقيقي من أن يعرف مقدار

---

* ـ شاعر يكتب القصة لأول مرة، وهو من شعراء الثمانينات، ليس له عمل مطبوع.

قيمة أعمالـه . . ، إنه الناقد الأول لنفسـه . . وبما أني أعي كل هذا فأنا . . رب الشعر .

ومن يشـك في شاعريتي عليه أن يقرأ قصائدي ، عندي أكثر من ألف قصيدة .

كتـابتي غزيـرة . . وهـذا دليـل كبـير على أصـالة موهبتي . . أكتب أكثر من عشـرة قصـائد حتى يتمكّن غيري من كتابة قصيدة قصيرة ! ! .

من أجل كل ذلك يحسدني أصدقائي . . ويحاولون بفعل الغيرة والحسد ان **يحطوا من قيمة أشعاري مدّعين أن الغزارة عدوٌ للإبداع .** إنهم يفقدونني رشدي في كل مرة أقرأ لهم فيها شعري . . صحيح أنهم يكتبون القصة والشعر . . لكنهم غير مثـقفـين . . جهلة . . وأنـا غيرٌ معجب بما يكتبـون . . لكن ، وحفـاظـاً على الصداقة ، ولأنهم معجبون بشعري ، أمتدح كتاباتهم السخيفة بعض الشيء .

أقـولُ في نفسي : ما خسـارتي لوجاملتهم . . **إنهم مبتدئون . . ثم مايهمني** إن كانـوا فاشلين؟ أنـا سعيـد لكون كتابتهم تافهة . . أرى نفسي ذا موهبة عظيمة حين أقارن شعري بما يكتبون . وأقول : لو أني انتقدتهم لعلمتهم كتابة الشعر ولربما سبقوني .

في هذه المسألة أنا أناني . . نعم أناني ولا أخجل . . كل العباقرة أنانيون . . ولا ألام إن أردت أنْ اكون شاعراً كبيراً وحدي . . أأحفر قبري بيدي؟؟ . دعهم يتخبطوا . . عندها لن يجد الناس غيري يعترفون به ويمجدونه . . ! ! .

لسـوف يحتـل اسمي الصفحـات الأولى في جميـع الجـرائـد والمجلات ! ! ، ولسـوف أتفـاوض مع احـدى دور النشـر الـواسعـة الانتشار وأتفق معها على نشر أعـمالي الكـاملة . . من شعـر وقصـة ، وروايـة ، ومسـرحية ، ونقد ، ومسلسلات ، **وسيناريوهات ، وبرامج تلفزيونية وإذاعية ، وفوازير رمضانية ، وخواطر ، وتأملات ،** والمقـابـلات التي أجـريتْ معي . . وأخـيراً كتـاب ضخم من عشرة أجزاء . . عن ذكرياتي وتجاربي الأدبية المتعددة . ولسوف تترجم جميع أعمالي الإبداعية إلى كافة لغـات العـالم الحيـة والمنقـرضـة ، ولا بد لي ان أنال كل الجوائز العالمية . وستقام لي

التماثيل . . وتوزع على مداخل المدن . . وفي الساحات العامة . . والحدائق . والمتاحف الوطنية وغير الوطنية . وسيطلق اسمي على العديد من الشوارع والحدائق والمدارس والجامعات والمعاهد . . وستعلن الدولة عن جوائز قيمة «باسمي» تشجيعاً للأدباء في كل زمان ومكان . . سأكون مدرسة لجيلي وللأجيال القادمة . . لي مدرستي الخاصة . . ومذهبي الخاص . ورؤ اي . . سيعتبر في البعض أديب الفلاسفة وآخرون مفكر الأدباء . . وفي هذه الأحوال سأكون غنياً جداً . . وسيكف والدي عن لومي . . ولن يقول لي بعد اليوم . . الشعر لا يطعم خبزاً . . وأيضاً سيضطر اتحاد الكتاب العرب لقبولي عضواً فعالاً . . وربما صرت في المستقبل أميناً عاماً له ، أورئيس تحرير مجلة ، وحينها لن أستمر في مجاملة أصدقائي . لأن عملية النشر مسؤولية كبيرة ، وبطبيعة الحال لن أسمح بنشر أعمال تافهة . سأكون حاسماً معهم ، وسأكتب في زاوية «إلى القراء» : أيها الأصدقاء ، أعمالكم غير صالحة للنشر لضعف المستوى . سيشتمونني كما شتمتُ محرر جريدة ، اعتذر عن نشر قصائدي ، لقد كنت محقاً في شتمه ، فقصيدتي جميلة ولكنهم مخطئون !! فما ذنبي إذا كانت أعمالهم تافهة؟ . وفي نفس الصفحة سأنشر قصيدة مطولة لنفسي ، ليعلموا كيف تكون الكتابة . وسأنشر دراسة عميقة ومطولة عن قصيدتي أكتبها أنا بنفسي وأنشرها باسم مستعار . لأن نقاد هذه الأيام لا يعجبونني أيضاً .

ومع هذا ، ورغم ثقتي المطلقة بموهبتي الشعرية ، فأنا مصمم على كتابة القصة . عندي مواضيع غزيرة ، وفي غاية الأهمية ، تصلح لأروع القصص ولم يقدر أحد سواي أن يكتب عنها . . لقد عشتها وخبرتها . . فأنا صاحب تجربة واسعة في كل المجالات ، أختلف تماماً عن أصدقائي . . ولا أتصور أن يكون أحد منهم مثلي يملك مثل هذه التجربة الواسعة . فإذا كان الواحد من أصدقائي قد أحب مرة أومرتين ، فأنا احببت اكثر من خمسين مرة . . وان كانت له علاقة غرامية مع أنثى فأنا لي عشرات العلاقات . . وان كان قد ضاجع عاهرة . . فأنا ضاجعتُ

معظم عاهـرات البلد، وإن كان الواحد منهم توظف مرّة أو مرتين في التدريس، فأنـا، والحمـد لله، توظفت في عشـرات الوظائف وعلى كافة المستويات من المهن إلى العامل العادي إلى الإداري إلى التجارة الحرة.

وإن كان الـواحـد منهم يحلم أن يدخـل السجن مرّة واحدة حتى يدّعي انه صاحب تجربة.. فأنا، والحمد لله، دخلته مراتٍ عديدة.. لكنني، والحمد لله لم أدخله بتهمـةٍ سيـاسيـة.. كنت حريصاً على أن لا أشوه اسمي عند الحكومة.. لقـد تصـورتِ أن يقـوم أحـد من أصـدقائي كتّاب القصة بالكتابة عن تجربتي.. ولكن، وفيـما يبـدولي، فإن أصحاب المواهب الصغيرة يبحثون عن المواضيع التي تناسب مقاساتهم.

خطر لي ان أباحث احدهم عله يستفيد مما مر بي، ولكنني أحجمت. لم لا أكتب عن نفسي بنفسي؟.. وهل سيقدر فعلي إن أسديت له هذه الخدمة؟ طبعاً لا.. بل وسيدعي انه مبتكر الموضوع أو أنه جربه بنفسـه..

ألم يفعل أصدقائي الشعراء ذلك؟.. احدهم زارني، وصادف ان كنت في حالـة شعـريـة لا توصف.. وعلى الـورقـة البيضاء أمامي عنوان لقصيدة جديدة سطرته بانتظار الوحي.

دخل فوقع بصره على الورقة، ولم يلبث أن غادرني لأرى بعد أيام قصيدة له في احدى المجلات عنوانها «بانتظار حبيبتي أجلس القرفصاء» الملطوش من عنواني «أنا وحبيبتي نجلس القرفصاء تحت المطر».

لهذا لن أطلع أحـداً من أصـدقـائي على مواضيعي الـرائعة.. سأباغتهم بقصتي وهي مكتوبة. وكتابة القصة بالنسبة للشاعر مسألة سهلة للغاية، لا تحتاج إلى حالـة ولا إلى انفعـال.. كتابتها تستطاع في كل حين لأن الشاعر موهوب من الـدرجـة الأولى وكاتب القصة من الدرجة الثانية!! سيحتج القاصون ويسخرون لكن هذا لا يهم فأنا هكذا أعتقد.

إذاً: كل شيء متـوفـر لدي.. التجـربـة. والثقـافـة والمـوهبـة من الدرجة

الأولى، فلم لا أكتب القصة؟ . . فعن الثقافة لا أحد يجاريني فيها من أصدقائي، رغم انهم أساتذة وطلاب جامعة، وأنا لا أحمل وثيقة الابتدائي . . صحيح انني أخطىء في النحو وقواعد الإملاء . . وصحيح انني ألجأ إليهم كي يصلحوا لي اخطائي ويشكلوا لي كتاباتي . . وصحيح ان خطي رديء للغاية . ولكن هذا لا يهم . . طالما أني اكتب اشياء جميلة . . أنا مثقف جداً . . . لأني أقرأ كثيراً . فإن كانوا يدرسون في الجامعة عشرة كتب خلال سنة، فأنا أقرأ خمسين كتاباً خلال هذه السنة . . ورغم اني بعت كتبي مراتٍ عديدة لهم بسبب ديوني المتراكمة . . وبسبب تورطي مع امرأة مطلقة وكان علينا التخلص من الجنين الذي بدأ يتكون في أحشائها . . بعتهم كتبي ودفعت ثمنها للطبيب . . غير اني أستعير منهم الكتب بكثرة . . ومع ذلك ما زلت أملك الكثير من الكتب الماركسية . . لم أبعها بسبب رخص ثمنها، وبسبب توفرها في المكتبات في كل حين . سأكتب القصة . . واعرف انهم سيحرجونني . وكم يحرجون المبدعين! . . سيقولون طالما أنك شاعر، وطالما أنك تدّعي الموهبة من الدرجة الأولى، لماذا لا تتنازل وتكتب قصة؟! . سأقول لهؤلاء: العيب ليس فيَّ . . العيب في الشعر نفسه . . إنه لا يستوعب تجربتي . . إنه فن التجريد والصورة والرمز والإيحاء والتكثيف . . [وركزوا على (التكثيف)]وأنا مليء بالمواضيع والحوادث الحية والملحمية . . أريد ان اطرح مواضيع هامة وسهلة، والناس يفضلون القصة على الشعر . حتى إن زوجتي تحب القصة أكثر من الشعر . هكذا تقول لي، وهوما يحزّ في نفسي صراحة . . لذلك قررت ان اكتب قصة . . ولكنني حائرٌ . . نعم حائر حتى الآن وأتساءل:

ـ ماذا سأكتب في قصتي الأولى؟؟ . .

حلب ١٥/ ٤/ ١٩٨٨

حصرم حلبي «محاكاة مازحة»

ـ محمد كامل الخطيب*
ـ محمود عبد الواحد
ـ خطيب بدلة

ثمة حكاية شعبية معروفة تقول: مر ثعلب بكرم عنب، وعندما حاول بلوغ العناقيد وجد أنها عالية، فانصرف وهو يردد «إنه حصرم رأيته في حلب».

ولكن هذه الحكاية أبدعتها مخيلة الشعب الضحلة الهزيلة. فلم تأت على

---

* ـ محمد كامل الخطيب: من كتاب أواخر الستينات. أعماله القصصية «الأزمنة الحديثة» «جيران البحر» «المدن الساحلية»، «النخلة المضيئة» «بلاد كالزيتون». في الرواية «هكذا.. كالنهر». في الدراسات والبحوث: «المغامرة المعقدة» «السهم والدائرة» «الرواية والواقع» «مسائل راهنة» «انكسار الأحلام» «أعمال سليم خياطة» «القديم والجديد».

المستوى المطلوب، ولذا سنحاول هنا إعادة كتابة هذه الحكاية بأقلام بعض كتابنا، الذين هم أكثر حنكة وتعمقاً وفصاحة وبلاغة، مما يمنح الحكاية أبعاداً وأعماقاً ودلالات لا يمكن أن تخطر على البال الشعبي.

وإذا كان من مجال لكلمة جد في هذا المزاح، فهي أننا مع احترامنا الشديد والفعلي لكتابنا هؤلاء، إنما كنا نمازحهم، ونمازح القراء، ونمازح أنفسنا.

حنا مينة:

ذات يوم، من عام ١٩٦٧، وكنت مفلساً وعائداً من بلاد الواق واق، بعد أن رحلت إليها في طلب الرغيف، كفاف يومنا، كما يقول السيد المسيح، لا في طلب الذهب والتجارة كما فعل السندباد دعتني سيدة فاضلة إلى قصرها في غابة الفرنلق، فذهبت كما نصحني صديقي الدكتور الذي أهديته روايتي «الثلج يأتي من النافذة» ولعلكم تعرفون أن الفرنلق هي الغابة التي كتبت عنها وفيها روايتي «الياطر» ورسمت شخصية شكيبة، هذه المرأة التي اتمنى ان أقابلها ذات يوم. لكني لا أدري كيف هبطت علي.. لا علينا، ونعود إلى موضوعنا، ففي غابة الفرنلق قابلت ثعلباً لطيفاً كسمك السلطان ابراهيم، أشقر كجدائل ماريا، يطأ الثرى متبختراً في تيهه وكأنه الأسد الذي وصفه المتنبي عندما كان عائداً من رحلته إلى مصر بعد أن مدح كافور أو هجاه.

ولما كنت مفلساً وعاطلاً عن العمل وأفكر برواية «الشمس في يوم غائم» التي اعتبرها انتصاراً للواقعية الاشتراكية في الأدب العربي، فقد أحببت أن أروح عن نفسي مع هذا الثعلب وأن استفيد الحكمة في الوقت نفسه. فالحكمة ظالّة المؤمن أنى وجدها حتى ولو كانت في أفواه الثعالب. سألت ثعلبنا اللطيف عن سر الموهبة والمعاناة، فقال لي: اقعد جانبي، فقعدت وانا انتظر ان يجيب على سؤالي، لكنه لم ينطق حرفاً واحداً، بل استمر ينظر إلى عنقود عنب معلق في ذؤابة شجرة عالية كالدقل.

عاودت السؤال فعاود الجواب وأضاف:

ـ انتظر وتعلم.

وظل يحملق إلى السماء، إلى عنقود العنب، وكأنه الطروسي ينتظر سفينته أو أم حسن، او كأنه سعيد حزوم ينتظر كاترين الحلوة. ولما كانت الشمس تغيب وأنا قاعد لا أفعل شيئاً، ولا عمل حقيقياً لدي، ولكني بطبعي ملول، أضجر حتى من السجائر التي أدخنها والتي يصر الصحفيون على تصويري وأنا أدخنها، فقد عاودت السؤال فأجابني:

ـ ألم تفهم الدرس بعد، ألم تفهمه بالتجربة. اسمع: الموهبة ان تقعد مثلي وتنتظر نضوج العنب إذا كان حصرماً، وسقوطه على الأرض اذا كان ناضجاً.

فيا أبنائي، إني أبشركم بنضوج العنب. ولكن فقط اعملوا وانتظروا، كما كان غوركي يبذر الحقل وينتظر، وكما كان ناظم يكتب الشعر في سجنه وينتظر، فبعد ثلاثة عشر عاماً نضج العنب وخرج ناظم من سجنه إلى شعبه.

زكريا تامر:

ـ ١ ـ

في اليوم الأول خُلق الجوع.
في اليوم الثاني خُلق الكرم.
في اليوم الثالث خُلق العنب.
في اليوم الرابع خُلق الناطور.
في اليوم الخامس خُلق الثعلب.
في اليوم السادس خُلق الخبث.

وفي اليوم السابع خُلق زكريا تامر فانحدر تواً إلى المدينة وبرفقته المحققون ورجال الشرطة والسجون والقيود الحديدية.

- ٢ -

نفخ الشرطي صفارته فبزغت تواً شمس الصباح وأضاءت شوارع المدينة بنور أصفر كأخشاب مشنقة عجوز.

- ٣ -

خرج الثعلب من حارة السعدي وعيناه تتلويان مثل طائر مذبوح العنق، متوجهاً الى الكرم القريب، حيث تتدلى عناقيد العنب مثل رؤوس الأطفال الطرية الشهية اليانعة. كانت الطرقات مقفرة إلا من عويل الرياح يصاحبه عويل اشباح سوداء مقطوعة الرؤوس تعدو في الأزقة باحثة عن أهلها وبيوتها. وقف الثعلب تحت العناقيد وراح يناديها:

ـ أيتها العناقيد!

ـ من يناديني؟

ـ أنا الذي أناديك...

ـ من أنت؟

ـ أنا الثعلب.

فارتجفت عناقيد العنب مثل فأر حاصره ألف هر، وهوت على الأرض مغمياً عليها وهي ترتعد خاضعة لرعب قاس.

- ٤ -

عندما رأى الناطور أن عنبه قد ضاع استل قنبلة ذرية من جيب قمبازه

وألقاها على العالم. ثم قطع رأسه ووضعه تحت إبطه، وراح يعدو في الطرقات مع الأشباح مقطوعة الرؤوس معولاً، نادباً كرمه وعنبه.

وليد اخلاصي:

خرج الثعلب (س) من بيته الواقع في حي (ب) من مدينة (هـ) متجهاً الى الطريق الواصلة ما بين مدينتي (ع) و(غ). وعندما وصل إليها توقف قليلاً كي يمسح نظارتيه السوداوين ويحشو غليونه الأبنوسي. وبعد ذلك تابع سيره بمحاذاة الطريق وهو يفكر بحيلة لإنقاذ المدينة من الطين الذي غمرها حتى طمرها.

عندما وصل إلى المنعطف المؤدي إلى مدينة (ز) توقف سائلاً نفسه ما هي الحيلة الأفضل، السير في خط مستقيم أم الركض في خط متعرج؛ ثم بعد أن ركض في خط متعرج نافثاً الدخان من فمه، عرف أن الخط المتعرج هو أقصر مسافة بين نقطتين. ولذا تابع سيره آمناً مرتاح الضمير في الطريق المؤدي إلى مدينة (ع).

لكنه ما ان قطع بضعة أمتار حتى لمح كرم (ن) لصاحبه (ق) فتوقف قليلاً وفكر: «العنب هو أصل الوجود، وأنا من آكلي العنب فأنا موجود» وركض في خط متعرج نحو الكرم.

حدق الثعلب إلى العناقيد المتدلية، ثم وضع يده تحت ذقنه ونفث من غليونه متأملاً وقال: «أجل العنب هو أصل الوجود». لكن صوتاً مدوياً أتاه من باطن الأرض كان يقول:

ـ لا.. لا.. ليس العنب هو أصل الوجود. فكرر الثعلب بإصرار:

ـ بل هو أصل الوجود. لأنه هو مصدر النبيذ، والنبيذ يطيح بالعقل، والعقل هو أصل الوجود، إذاً فالعنب هو أصل الوجود.

ـ أنت مارق على الفكر البشري، أنت ناكر للحقائق الأزلية، إذن أنت خائن.. يهوذا.

فصاحت الأشجار والاعشاب والطين:

- يهوذا . . . يهوذا . . يهوذا . . .

فغادر الثعلب الكرم وهو يتلفت إلى الوراء ويهز رأسه آسفاً. وعندما وصل إلى الطريق خلع نظارتيه، وحشا غليونه وهو يتمتم مثل غاليليه عندما هتف: «ومع هذا فهي تدور».

- ومع ذلك فإن العنب هو أصل الوجود، ولكني ضحكت عليهم، فهذا ليس عنباً وإنما هو حصرم رأيته في مدينة (ح).

حيدر حيدر:

في هذا الزمن العربي الموحش، هذا الزمن الذي يتنزى صديداً وقهراً واغتصاباً، حتى الثعالب أصبحت تسرح وتمرح على هواها، في وضح نهارات الصيف القائظة، بينما الوعول تُطارد أو تقنص في صحارى وغابات هذا الزمن الخارج من كهوف الأرض السحيقة، فهل نعجب إذا تحول إلى حزمة من الأكاذيب والسرقات فهل نعجب إذا فقد العالم براءته وطهارته، هل نعجب إذا تحولت الثعالب إلى بائعة للحكمة، أو الى معلم يقتديه سادة هذا الغاب العربي، وهم يخاتلون قطيعهم الغارق في فيضان من الدماء العربية، موطن النقاء والعشق المعتق كالخمر.

هذه البرية الفسيحة كمرج أخضر، كبحر أزرق.

في هذه البرية كانت تنتصب، كامرأة وحشية لانطال، شجرة يتدلى منها عنقود عنب. كانت رائحة العنب تملأ الصحراء التي صارت غابة بربرية، وكانت الموسيقى الكونية تضج وتفتح أبواب هذا الكرم الأخضر. وكان الثعلب يطاول العنقود والعنقود يتأبى.

فيا امرأة من رحيق الدم والوطن، ويا عنقوداً يأبى اغتصاباً، ستبقى نائياً

عن أفواه الثعالب، وستبقى ما بقيت الريح والوعول ونشيد الانشاد، عنقوداً شامخاً، وسيبقى غيلان الدمشقي يهتف، وحيداً، في هذه البرية، وفي وجوه الطغاة: هذا عنب، هذا عنب، غير عابيء بالثعالب الأفاكة وهي تخاتل شعوبها مرددة: إنه حصرم.

حسيب كيالي:

يخرج علي المنهوج من بيته في فم زقاق العَوْجات، وبيده قبوط كبة نية نصف قطره ـ من دون مبالغة ـ ٢ إنش، يقضم منه بتلذذ، قُلْ يتمطق به، وكأنه ليس مجرد كبة نية خالية من أي أثر للهبرة المدقوقة بالدقماقة.. وإنما زنّانة مؤلفة من رغيف تنوري مُطَعَّم على بطانية، مغطوط في قادوس زيت زيتون أصلي مال سلقين أسيده ٣ شخطات ومرشوش عليه رمان دركوشي فرقاع.

كان قد بلغ بازار القش، باتجاه بير الشهيد، وفجأة، لا يدري كيف، تذكر اليوم الذي قطشوا له فيه إياه، وكان فتى يافعاً... يومها ذهب إلى مدرسته فاستقبلته جوقة من أترابه بأغنية هذا مطلعها:

علي علعل
طبخ برغل
إجا ليصبه
حرق (.....).

أصابه هذا الخاطر بالهلع. تساءل مع نفسه قائلاً:

ـ ماذا لو التمّ هؤلاء المبوزرون كلهم حوالي في حلقة دائرية وغنوا لي الآن علي علعل طبخ برغل؟

وصار من خوفه يمشي ويتلفت يمنة ويسرة وكأنه حميماتي خسران شلعة حَمامِهِ في مكبّه أفلتوها من عند مقام الشيخ أبي الحَسِنْ....

وبينما هو في شروده وصفنه وإذا بكف موزنة تهوي على رقبته. صاح: آخ، والتفت ويده في الهواء يريد أن يهوي بها على مناخير صاحب هذه المزحة التي لا تنزل في قبان، فإذا هو، وجهاً لوجه، مع أبي صطيف وسَّعْلو، الذي أطلق ضحكة تشبه قرقعة طوب رمضان الذي كان يطلقه أبو كمال شويش من على الرمادة أيام زمان بعدما يحشوه بكل شيء عديم النفع.

قال أبو صطيف:

ـ سمعت أيش صاير في البلد؟

ـ لا والله. نورنا حتى نشوف.

ـ يا سيدي منلا أنت، ما عندي من الأخبار، غير أن سرقة العنب من البراري صايرة لأبي موزة، هذا من عدا سلت الزيتون وقلع سلوخ الخيار.

ويفاجأ صاحبنا من هذا الخبر، ويزفر زفرة تكنس الشارع على مدى خمسين متراً، ويقول لأبي صطيف:

ـ بشرفك؟ قل والله هذا الحكي صحيح.. ترى إذا كان صحيحاً نكون قد شممنا هواء غربياً حاشا السامعين، بوجهك الماورد.

قال أبو صطيف:

ـ بس الذي سمعته، بالنسبة للعنب، أن ثعالب لا يعرف أحد من أين جاءت هي التي تأكله. بقى دِرْ بالك قبل ما تطلع.

وصافحه ومشى. وفي طريقه الى البيت كان ينوي أن يتمنطق بجفته الكسر نمرة ١٢ ثم يلطأ تحت العريشة المنصوبة شرقي المنطرة في كرمه، فإذا ما مر أي ثعلب أو آدمي يضربه فشكة واحدة على بنت دانه.. غير أنه في تلك اللحظة ينتبه إلى مسألة غابت عن ذهنه قبلاً فيقول لنفسه:

ـ لُكْ لُكْ.. العمى على هذا الخلط.. كيف يُسرق العنب والزيتون والخيار مع بعضها، وكل واحد منها له أوانه؟

ويتيقن أن هذا واحد من مقالب أبي صطيف وسعلو الكثيرة التي يمارسها

على النـاس. وينـوي أن يرد عليـه بمقلب ينسيـه الحليب الذي رضعه من بز أمه ذات العجيزة التي تطلع بقد حلاية الجب..

ويهمر، ويتابع سيره، لكن ليس إلى البرية، وإنما نحو مقهى مَحَاسِبْ.

وليد معماري:

الثعلب مسجّى على الأرض، تحت عريشـة العنب. هي ليست عريشة؛ ثلاثة أرباع. مؤلفة من خمش شعاب تجتمع كلها في نقطة واحدة. الشعبة الأولى تجيء من أقصى اليمـين، وهي عبـارة عن نبتـة خيـار ساحـلي تركـه أصحابه دون قطـاف بعـد أن انخفض سعـره بفعـل منافسة الخيار الأحمر المستنبت تحت البيوت البـلاستيكيـة في ظروف مناسبة للغاية. الشعبة الثانية عبارة عن صنبور ماء ينتهي بحنفيـة تنقـط مثـل فرفـورة الـولـد. الثـالثـة، وهي الأهم، تلتقي عنـدهـا كافة الشعاب، الدالية، وهي محملة بعنب أسود شفاف، وهو العنب الذي وقعت حوله مشكـلة الثعلب، أعني المشكلة التي جعلت الثعلب يسجّى على الأرض. أمـا الشعبتـان الـرابعـة والخـامسـة، فمتعمشقـة عليهما نباتات زينة كان السيد عزمي المشـرنب، زوج السيـدة بهيـة آكـل الكتف، قد أوصى عليهـا، فأحضرها له من فرنسـا وايطـاليـا صديق له، مع شحنـة من السـير اميـك موَّهـوها بأن كتبوا عليها «ديبيلاك.. حتى الشهر العاشر».

سألت قدريـة المطـلي وهي ساهمة في قلب فنجـان القهوة الذي كان مطبوباً قبل قليل:

ـ من أين جاء الثعلب؟

فأجـابتهـا سميـة لفّـاف الكوع وهي تركز كعب السيجارة بين شفتيها على نحو لا ينزع أحمر الشفاه:

ـ ولو أختي قدرية، أنت ست العارفين، يعني قلة ثعالب في البلد؟

وهنا تشعب الحديث بين النساء المنتحيات جانباً من الحلقة المضروبة حول الثعلب. بدأ الحديث عن الطرق المحتملة لمجيء الثعلب، وهذا الجانب حسمته السيدة لَمَا، زوجة السيد عنتر بن شداد اللحف، بقولها:

ـ هذا لا يهم، افترضي أنه نزل بالهليوكبتر.. المهم ماذا سيعملون للجثة؟ أنا رأيي: إكرام الميت دفنه!

وبدأ جانب آخر من الحديث وهو الجانب المتعلق بموديل آخر سيارة دخلت البلد عن طريق السيد عنتر بن شداد المكانس لتقوم بإيصال أولاده من/ إلى مدارسهم، وزوجته من/ إلى الكوافُور. هذا وقد انقطع حديث السيدات، وكذلك الأصوات المتداخلة الآتية من حلقة الثعلب بسبب رنين الهاتف. نسيت أن أقول لكم إن العريشة مؤلفة من ست شعاب وليس من خمس كما أخبرتكم مرة واحدة قبل هذا، الشعبة السادسة كانت عبارة عن شعبة غير مرئية لهوائي مهمته تقوية المكالمات الهاتفية اللاسلكية التي تجرى بين السيد هباش سمهدلووهو جالس في سيارته وملتصقة به عشيقته، وزوجته السيدة نظيمة تَلْحَلَحْ التي كانت تسمع على الهاتف صوت القُبَل، بعد أن يقول لها (مشتاق لك حبيبتي) فتروح تحكي لصديقاتها أن زوجها يبوسها على الهواء لا سلكياً، يومياً.

كان على الطرف الآخر للهاتف، هذه المرة مواطن حلبي له قريب ساكن بجوار بيت السيدة بهية آكل الكتف يريد أن يتطمن عن أحواله. أثناء الاتصال سمع لغلغة، سأل عن سببها بدافع الفضول، فقيل له إن حادثة ملخصها أن بغلاً رفس ثعلباً بجوار بيت السيدة بهية آكل الكتف. فنقل الخبر إلى الناس في حلب: إن امرأة اسمها بهية البغل أكلت كتف ثعلب مرفوس في دمشق. وهنا أصبحت للسؤال صيغة جديدة:

ـ ومن أين جاء البغل؟

ـ قلة بغال في البلد؟

كما أخبرتكم مرتين حتى الآن.

وعلى كل الأحوال، اوسواء رفس بغلٌ ثعلباً، أو أكلت امرأة كتف بغل مرفوس، كما أخبرتكم ثلاث مرات حتى الآن، فإن هذا كله لا يهم. الذي يهم هو: ما علاقة خيمة السيرك المنصوبة على ضفاف نهر قويق في الزبلطاني، بالمسلخ الذي ركب فيه الرجلُ الكبشَ وقادَهُ من قرنيه ليذبحه بغرزة واحدة؟ وهل حقاً إن الفيلة تأكل القطط السمان، أم أن الرجل الذي أرسل دورية مؤللة للقبض على البلياتشو هو الذي استورد الميراسيك إلى قشمد؟

لا أعرف. كل ما أعرفه أن الثعلب المسجّى كان مغطى بقطعة كاملة من جريدة يكتب فيها رجل يدَّعي أن ظله خفيف وأن اسمه وليد معماري (وهو، في الحقيقي صحفي طفران، وفي القصة محام..)، وكان له بالصدفة مقالة عنوانها (يتيم الزمان في صناعة المثقف الفهمان) يحكي فيها عن سيدة تكتب قصصاً قصيرة سخيفة جداً وهي لا تعرف ذلك لأنها تقرأ قصصها عادة لأناس من صنف الرجال فيقولون لها إن قصصها روائع سيحتار التاريخ بأي حبر يدونها وعلى أي صفحة من صفحاته الناصعة البياض....

قال أحد الواقفين (... لا أعرف من أين يجيء بعض الناس ببعض الأفكار):

ـ فهمت لكم سبب الحادثة وكيف وقعت!

فالتفتت رؤوس الواقفين إليه تلقائياً وكأنها برادة حديد جذبها المغناطيس.

تابع:

ـ ... لقد حاول الثعلب الوصول إلى العنب. حاول مرة ومرتين وثلاثاً، ولما أخفق في الثالثة طق ومات غيظاً.. لم يرفسه أحد.. أنا واثق: لم يرفسه أحد...

قال آخر:

ـ أنا رأيي أنه كان من الممكن أن ينجو فيما لو ضحك على نفسه فأقنعها بأن ما تشتهيه ليس أكثر من حصرم حلبي حامض.

قال ثالث:

ـ لكن كيف يقنعها؟ العنب واضح وضوح الشمس...

وهنا وجدت أن لا جدوى من متابعة هذا الحديث الركيك.. فغادرت المكان...

ورحت أبحثُ عن مسافة للركض وفرصة للهطول ومساحة للعبير وغيمة أركبُها أميرةَ القرنفل توأمة الروح سيدة النبيذ والعرائش...

حسن. م. يوسف:

نقزت جديعة الحمدان زوجة سويلم عز الطب وحاصت في مجلسها على حصير تخان ممدود من زمن بعيد على أرض الغرفة الطينية، وصاحت بابنها عليش وهي تعلك آخر لقمة من المتبلة واللبنة المغطسة بزيت زيتون كردي كان زوجها سويلم قد أحضر تنكةً منه عندما كان في زيارة لأصحابه في عفرين العام الفائت:

ـ عليش.. واعليش.. وينك ولاه ابن الكرّ؟

فصاح سويلم الذي كان منزوياً يحلب العنزة الشامية التي اشتراها من جبلة قبل اسبوعين بألف ليرة:

ـ الكرّ هو عمي حسين الحمدان لأنه خَلّفك يا جديعة.

ثم جاء صوت عليش ضعيفاً محطوطاً من جهة دار صطيفي السمعون التي اجتاحها ذات يوم «سيل الهدهد». كما تعلمون:

ـ خير ان شاء الله؟ شوبِك مَ تصحّي من بخش الضو؟

تدخل سويلم:

ـ عيب يا ولد، هذه أمك امرأة آدمية وبنت خلق وعالم، لكن يشهد الله أنها محمّصة ومهبهبة، لذلك مطلوب منك أن تدبر لها رجلاً غيري سراً وبالعجل أحسن ما تنط لنا على الرجال في الزواريب وتفضحنا بعد هالكبرة.

قال عليش :

ـ يلعن اللي عَمْلَكْ على هالحكي! بس حضرتك بتعرف أن المرأة ما تصيِّح إلا إذا كان فيه تقصير تحت اللحاف من طرف رجلها الذي هو أنت ما غيرك يا آدمي .

عبست جديعة وصرخت لتقطع هذا الحوار بين الأب وابنه اللذين تعتبرهما تنبلين لا يوجد مثيلهما في تكية السلطان عبد الحميد :

ـ يقطعَكْ الله ، ما أجحشك يا عين أمك . تارك العنبات مطوطحات في الهواء وقاعد تتسمم متة في بيت صطيفي السمعون ، بعدين جيت تتفلسف مع بيّك وكأنه رفيقك . وهلق اذا سرقوا لنا العنبات أو إذا أكلهن الثعلب بدي افرح فيك وببيك وبدي ازرع على خراكم بقلة . . .

قبل أن أتابع معكم تفاصيل هذه المعركة البذيئة بين سويلم وابنه من جهة وبين زوجته جديعة من جهة أخرى ، تعالوا أعرفكم عليهم واحداً واحداً :

جديعة الحمدان (أربعينية ، بدينة ، على وجهها ملامح جمال وحشيّ كان لها يوم تعرفت على سويلم عز الطلب . كانت في رأس الدبكة عندما اندس سويلم بين الدبيكة ولقط يدها بيد أقوى من الكماشة . وبلمح البصر مد يده وقرصها في فخذها الأيمن ، فَسَرَتْ في جسدها رعشة قوية عرفت من خلالها أنها تحب سويلم ، ففحصت وقالت له بصوت تعمدت أن يكون قاسياً : قَصِّرْ إيدك أحسن ما أكسرها وعلقها في رقبتك ، فعاجلها بقرصة ثانية فقالت : يا سويلم يا ابن الناس لازم تعرف أن نحن ما عندنا قرص بالحرام) . .

سويلم عز الطلب : (خمسيني ، له هواية بالدبكة ويشرب المتة ، يعيش من تربية الماعز . يقال إنه في الأصل من قرية تقع إلى الشرق من بطشيت ، وإنه هاجر إليها بعدما هاجم الجادوم(*) حقولَ قريته وحلش الأخضر واليابس . كان أبوه مأمور

---

* الجراد .

حراج، أخبره بحبه لجديعة فخطبها له فتزوجها وصار يقرصها بالحلال).

نسيت أن أذكر لكم أن ظهر جديعة لا يمسك أولاداً، كانت تجهض في الشهر الثالث. وذات يوم جاءت غجرية إلى بطشيت قرأت لجديعة فألها ونصحتها بإلقاء ثيابها وثياب زوجها الداخلية في «البحر ثلاثاً» وأن تنذر الولد للبحر وأن تسميه عليش، وهذا ما كان، وطبعاً جديعة صدقت أن ابنها لم يكن ليصمد لولا هذه التوليفة الغيبية، من جهتي لم أجد أية علاقة منطقية بين حياة عليش وسراويل أبويه.

عليش (في الخامسة والعشرين من عمره، طويل، قويّ البنية، يكتب شعراً عمودياً ويحب شرب المتة وبنت صطيفي السمعون. مرة دار نقاش حول الشعر القديم والحديث وما شابه ذلك، فكتب بيت عتاباً أقلع بعده عن قرض الشعر وصار يعمل في رعية الماعز:

قديم الشعر قالوا في القصيدي
متل تفعيلته ونثره في القصيدي
وأنا إذا عدت كتبته بقصّ إيدي
ودمتم لنا ودمنا لكم يا حباب).

أما شخصية الثعلب التي ستظهر بعد قليل فهي (ثعلب، كان صغير السن عندما جاء به إلى الضيعة رجل اسمه علي صلوح ورباه بين الدجاج معتقداً أن هذا ـ الاختلاط ـ سيزيل العداوة التقليدية بين جنس الثعالب وجنس الدجاج. ولما عسي عوده التقط شلفوناً وهرب به، ومن يومها صار يهاجم أخام الدجاج في بطشيت، وصار بعد أن يسرق الدجاجة يأكلها ويتوجه إلى البراري بحثاً عن العنب (بمثابة دوسير)، وصار يعرف باسم ثعلب علي صلوح).

اتجهت جديعة إلى المعلف الواقع إلى جوار الحاووظ حيث توجد دستة قظامي ودستة رفوش، حملت قظمة واتجهت صوب الباب وهي تقول:

ـ لما الرجال بيصيروا نسوان، لازم النسوان يصيروا رجال. يا حيف.

حاول عليش اللحاق بها فصدته قائلة :

ـ لا وحق الشيخ حيدر بالضهر، والأئمة العشر، وكل عيد ونذر. . مانك رايح .

وتابعت سيرها باتجاه الكرم القبلي . ولما وصلت تفقدت أشجار الزيتون ومساكب التتن (شك البنت) وعريشة العنب . وهناك وجدت ثعلب علي صلوح واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ويحاول إيصال قائمته الأمامية إلى العناقيد الحمراء . تركت نفسها في خط وراء ظهر الثعلب ومشت ببطء كأنها صياد ماهر، حتى صار الثعلب في المدى المجدي للقظمة فرفعتها في الهواء وقالت :

ـ قسماً عظماً لأشقك نصفين، ولألعن قَرّاعة جدك! بدك تسرق العنبات يا فشتوك؟

وهوت بالقظمة لكنها اصطدمت بالأرض، إذ كان الثعلب قد أحس على ما يبدو بوقع خطاها فقحص ونط في الهواء ونزل على مبعدة مترين، ثم أخذ يضحك وقال :

ـ لاياخالتي جديعة . على زمتي كنت مفكرك أفهم من هيك . ليش أين العنب؟ هذا حصرم، إذا ما بتصدقي تطلعي مليح .

نظرت جديعة وقد أدخل كلام الثعلب الشك في نفسها إلى الأعلى . ولما رأت عناقيد العنب متدلية أعادت نظرها إلى الأرض فلم تجد ثعلباً ولا ما يحزنون .

* * *

والآن كيف يمكن لبعض نقادنا أن يتناول هذه الحكاية بالنقد والتمحيص والتشريح، والتحليل والتركيب؟ . . .

* * *

حسام الخطيب:

«الثعلب والعنب» قصة قصيرة مطولة أو رواية طويلة مقصرة. كان من الممكن بسهولة أن تصبح رواية ذات حجم طبيعي ـ وسط وزن روائي معتبر. لو توفر لدى المؤلف النفس الاستقصائي الإلحاحي التفصيلي السيكولوجي الانتر بولوجي الذي يتوفر لدى ارنست همنغوي مثلاً، عندما يكون في أفضل حالاته، فأنتج من يوم صيد بحري لرجل عجوز رواية مثيرة: «الشيخ والبحر».

إن المؤلف انتقائي بطبعه. وقد يكون ضيق العطن (بالمعنى النفسي). ومن هنا فوت على نفسه، في رأيي، فرصة تقديم رواية خالدة تعتمد على قصة الثعلب والعنب، التي يشكل موضوعها في حد ذاته، خمسين في المئة من رصيد أية رواية مرشحة للنجاح (بيست سيللر).

ان الجانب الاجتماعي في هذه القصة قوي، أو على الأصح، يجب أن يكون قوياً. وكان من الممكن أن يكون أقوى لو أنه استبدل بالثعلب ذئباً أو حمامة، وبالعنب قطيع خراف.

بل كان العمق السياسي والاجتماعي للقصة أكبر وأغنى لو أنه استبدل بالثعلب، مثلاً، اقطاعياً عاجزاً جنسياً وبالعنب فلاحة جميلة متزوجة، يطمح بها الاقطاعي، ولكنه لا يقدر عليها، ذلك نظر لوضعه الفيزيولوجي الذي وصفناه آنفاً، وعندها ربما كان ضربة الختام «انه حصرم رأيته في حلب» بالغة القوة من حيث الدلالة الاجتماعية والسياسية.

إن نشوز الثعلب هو في الأصل نشوز اجتماعي، سواء في مواجهة الكرم من حوله، أم في مواجهة الناطور الظالم.

ولكن الإطار الاجتماعي أتى هنا رقيقاً وجرى تجاوزه لمصلحة المحركين، اللذين يشغلان بال المؤلف دائماً، أو احياناً، أو لا يشغلانه أبداً. وهذه الأمور مجتمعة قد تكون المحرك النفسي أو المحرك الفكري. سمه ما شئت.

لقد بشرتنا هذه القصة منذ البداية بطلعة ديكنزية وبنزلة جويسية وبنهاية شيكسبيرية ولكنها فجأتنا بدلا من ذلك بانعطافة بروستية.

وختاماً يمكن أن نقول، إنها قصة جيدة، لولا أنها تكاد تكون سيئة.

نبيل سليمان:

مع احتدام الصراع في عالمنا العربي المعاصر، يزداد الصراع الايديولوجي حدة وضراوة، كما أشرنا إلى ذلك: بوعلي ياسين وأنا، في كتابنا الذي آثار معركة نقدية عاصفة ودرس في عدد من الجامعات العربية، والذي لا أدري لماذا لم يتخذ طريقه بعد الى الجامعات الأوروبية.

إن من يدعون لنظرية «الفن للفن» والابتعاد عن الايديولوجيا في الأدب، إنما هم أعداء طبقيون سافرون، يخفون نواياهم الخبيثة الماكرة وراء شعارات براقة، وجمل مبهرجة.

والنص الماثل بين أيدينا هو مثال على التحايل الأيديولوجي تحت ستار هوماني، لبث الفكر الذاتي المنغلق على نفسه. وفي البداية نرى الثعلب يتنطع باحثاً عن خلاصه الفردي بمحاولة قطف العنب من وراء ظهر الجماهير الكادحة والطبقات الشعبية المناضلة. ومعروف أن البحث عن الخلاص الفردي هو من أهم السمات المميزة للبرجوازية الصغيرة في مرحلة انحدارها وافلاسها التاريخيين. فهذه الطبقة، وكما يقول ماركس، تحلم بالصعود إلى الاعلى ولكنها، وكما يقول لينين، مهددة دائماً بالنزول الى الأسفل. ولذا نراها مؤلفة من ذرات مبعثرة منغلقة على نفسها، كل واحد منها يبحث عن خلاصه الشخصي وعن جنته الخاصة الموهومة. وعندما يهزم، يأبى الاعتراف بهزيمته، كما حدث في حرب الـ ٦٧، ويقول لقد خسرنا جولة ولم نخسر المعركة، أو يقول لقد خسرنا الحصرم ولم نخسر العنب.

خلدون الشمعة :

لعل تحديد الجنس الأدبي «جانر» كما يقول الر وفيسور (نايت) هو أساس النقد الأدبي «ليتر تشير كريتيك» كما يمارسه و. س. برادلي.

هنا أمامنا يمثل «تيكست» الثعلب والعنب. تتحدد مهمتنا الأولى في تعيين جنسه الأدبي. هل هو رواية (نوفل) أم قصة (ستوري) أم قصيدة (بويم) أو حكاية خرافية (فابل) أم حكاية بمعنى (تِل).

من الواضح أن النص الذي تقرؤ ونه ليس رواية، لأن الواقع في الرواية، كما قال، أوستن وارن، يتألف من جماع الشيء والحادثة، أو الفرد الذي يتصل بشبكة واسعة من الوشائج التي تربطه بأشياء وحوادث «أكسيدنت» أو أشخاص آخرين، وعلى سبيل المثال يمكن تقديم خارطة تخطيطية للواقع الروائي على النحو التالي:

(نموذج - ١ -)

يقع (أ) إلى يمين (ب) وتحت (ج) وعلى بعد مائة متر من (د) ويحبه (هـ) ولا يعرفه (و).

(نموذج - ٢ -)

(ل) متأخر عن (م) ويوجد بين (ن) وبين (و) ويؤثر عليه (ع) فهو إذن تكرار لـ (ن).

(نموذج - ٣ -)

السيد (ت) هو غير (س١) ايجابي، وهو صديق (ف + س = ٣) ولديه نفس لون شعر (جذرق) لذلك هو متزوج من (و) و(د) معاً.

وبما أن شخصية الثعلب في النص لا تقع إلى يمين (ب) ولا تحت (ج) ولا يحبها (هـ) وليس لديها نفس لون شعر (ق) فإن النص المذكور ليس رواية. وهذا

ما أكـده بريستـد مراراً. لكن ينبغي أن نؤكـد في الـوقت نفسه أن هذا النقد ليس بنيوياً وإن خاله بعضهم هكذا.

وكـذلـك هذه القصـة ليست بقصة، لأن الواقع المركب يتطلب أداة فنية، مركبة بالمعنى الذي يستخدمه (راسكين) في كتابه (سبعة أنماط من الغموض)، كما إنه لا حاجة للبرهان على أن النص المذكور ليس قصيدة. قد يكون حكاية متأثرة بكليلة ودمنـة على نمـط الحكـايات التي يكتبها بورخيس، لكن لا يمكننا إلا أن نتفق مع الناقد (ستيفن ماكلوهان) في تحديده الجنس الادبي لهذه الحكاية. فهذه الحكـايـة هي حكـايـة خرافيـة (فابل) وكفى الله المؤمنين شر القتال (كيتال)، كما كنتُ قد كتبت في مقالتي السابقة.

* * *

والآن حتى لا يزعل منا أحد، فإننا نكتبها على الشكل التالي:

* * *

محمد كامل الخطيب:

مدخل:

لقـد ظل المجتمـع العـربي نائـماً إلى أن أوقـظ على قعقعة سلاح المستعمر المستثمر. وإنها لمصادفة ذات دلالة أن يُولد رفاعة الطهطاوي في العام الذي رحل فيه المستعمرون عن مصر ١٨٠١ وأن يولد طه حسين عام ١٨٨٩.

فكأن هذا كان يعني أن المـوضـوع لم ينته بخروج الفرنسيين. بل ربما تكون المعركة بدأت بخروج الفرنسيين وولادة المازني تحديداً.

إذ أن الاستعمار الرأسمالي كان يصدِّر إلينا فيما يصدر أزماته الفكرية والاقتصادية والسياسية.

مقدمة:

تأسيساً على ما تقدم، أو بما تقدم نستنتج إن حكاية «الثعلب والعنب» هي انعكاس للواقع الراهن بكل ما يحمله من آلام وأوهام، من أحلام وانكسار أحلام.

إن شخصية الثعلب هنا تجسد عقلية «المثقف الكولونيالي» المولع بالكلمات. فبدءاً من دخول الحضارة الحديثة «الغرب» أعماق المجتمع العربي تبدأ مرحلة جديدة في حياة هذا المجتمع وفي قضايا أدب هذا المجتمع، بل وفي تأثير الغرب على هذا المجتمع. بدءاً من تلك المرحلة، تبدأ الاحلام ويبدأ انكسارها. إن الثعلب يتأمل عناقيد العنب العالية (الحلم) تأملاً وجودياً بحتاً، مدركاً عبث الحياة وكل الأحلام ولا جدوى النضال، وكأنه يردد مع سارتر: «الجحيم هو الآخرون».

خاتمة:

نقرأ الجملة الختامية عندما يدرك الثعلب عجزه عن بلوغ العنب إذ يقول: «إنه حصرم رأيته في حلب» الا تذكرنا هذه العبارة، بعبارة أخرى تقولها احدى الشخصيات في قصة «الحلبة تنتظر يا. . .» (بيروت ١٩٦٨) ليوسف شرورو: «عش الحياة كمصارع أصيل. . لا كمصارع، عضلات، بل مصارع كلمات».

ملحق:

وكما هو معروف فإن صراع الكلمات لا ينتج إلا الكلمات والكلمات، وتلك

لعبة تجيد ممارستها البرجوازية الكولونيالية، في الوطن العربي، تلك البرجوازية التي ترى في انفضاح أوهامها انكساراً لاحلام الانسان في العدالة والحرية ونهاية للعالم والسلام.

محمود عبد الواحد:

في فضاء من الثلوج وأشجار الصنوبر، وفي صباح من الفرح الأبيض، كانت الدنيا تهمي ندفاً بيضاء، وكان الثعلب (يام) يركض كطفل أبدي عبر حقول طفولته المنسية، حالماً بالألعاب والعنب، وبالأيام التي كان يرقد فيها في حضن أمه الدافيء العذب.

كانت الدنيا تشع، وكان (يام) يلهو وكأنه في عرس العالم السرمدي. كشجرة بتول خالدة، انتصبت في الحقول عرائش يتدلى منها مراجيح وبالونات وعناقيد عنب.

كانت المراجيح والبالونات وعناقيد العنب والرجل العجوز، تصطف وكأنها أشجار تنتظر الضيف الغامض.

عن أول أرجوحة قطف الثعلب عنقوداً ذاكريات عنبية متلألئة. وأخذ يتمرجح، ملتقطاً حبات العنقود بفمه الصغير، المتفتح كوردة برية. لكن المسكين لم يكن يدرك أن ما يأكله كان حصرماً، وأنه سيضرس عندما يكبر، إن كبر.

خطيب بدلة:

قبل أن أقص عليكم، أيه السادة الأكارم، وقائع ما جرى للثعلب، يوم الاثنين الواقع في ٢ / ٧ / ١٩٨٦. في المساكن[1] الشعبية الجنوبية[1]، أرى لزاماً

---

١ ـ من سكن يسكن، أي لبد وهمد، وتكربس الناس فوق بعضهم كربسة، ومنها الكربيسة ←

علي أن أشرح، لمن لا يعرف، الفرق بين ثعلب قلم أحمر، وثعلب قلم أزرق.

ملب قلم أحمر، على عكس الثعلب قلم أزرق، ثقيل الوزن، يحتاج حامله مزوي (خطاف) لئلا يَنْفَتِقَ أو يَنْقَبِل، وفي مثل هذه الحالة سيضطر إلى مراجعة طبيب جراحة عامة على نحو طارىء[3]، فيقول له هذا: بدك تحليل، بدك تصوير، بدك تحليل بول، بدك تحليل براز، ولك حتى البراز، لا يتركونه بحاله، يريدون أن يحللوه، تصوروا! ثم خذ جرِّبْ هذا الدواء، ما ظبط، خذ هذا، ما مشى حاله، بدك عملية، يروحون يقصبون الرجل وهومثل الجاموس..

المهم، دهق الثعلب قلم أحمر العدلَ قلم أزرق الملقى فوقه، ففرفح وطار في الهواء مثل الطير القلاب[4]. عَبَرَ زقاق أبو حنوف، فزقاق الطاحون، فزابوق بيت أوسو، ثم غل في عوجة جامع الشيخ علام الدين، بجوار النافذة الغربية لمقهى القصر، وانفلت في السوق، وراح يضرب البسطات والجدران بذيله، ونحن وراءه والأولاد والنساء والقصابون بسكاكينهم، ظللنا وراءه حتى وقف تحت عريشة العنب الواقعة إلى الشرق من دكان طه حاج حسون، وفي تلك اللحظة خرج المصلون على هيئة رتل متقطع ونزلوا شمالاً باتجاه طاحون منير، والثعلب يتقدم ويتأخر، ثم.. فجأةً نط في الهواء حتى حسبناه قد طار، وكادت يده تلامس عنقود عنب مدلى مثل حدرة العنزة، لكنه لم ينجح، فكرر المحاولة مرات دون جدوى.. إذ ذاك التفت صوبنا وقال:

ـ أيش بكم قلبكم انقطع ولاحتْ الصابونة على وجهكم؟.. العمى في

← الحامضة، لعبة كنا نلعبها ونحن صغار حيث نقع كلنا فوق بعضنا فينهرس التحتاني هرساً.

٢ ـ بالمناسبة لم ينقطع التيار الكهربائي عن المساكن الشعبية الجنوبية يوم الاثنين ١٩٨٦/٧/٢.

٣ ـ هذا اذا لم يطرأ على الطارىء طارىء.

٤ ـ والجخجرلي، والبايملي، والأبيض ذنب.. الخ.

سقفكم، ولـك بعمرها أم الجبان ما زلغطتّ واللي بيقع من السماء بتتسلقاه الأرض.. بعدين هادا ما عنب، هذا حصرم مخرزم عايف سماواته..

وتركنا ومشى والدموع ترقرق في عينيه، بينما جلست أنتظر زوجتي التي لابد أنها ستعمل لي دوش بهدلة مرتباً عندما سترى أرض غرفتنا المتحدة[٥] وقد لخبط الأولاد محتوياتها لخبطة ما بعدها لخبطة.

---

٥ ـ باعتبار أننا نسكن في ممر ومنافعه.

الفهرس

ملاحظات ٩
مجلس الرحمة ١٣
البصبصة ٢٥
عريظة استرحام ٣٥
أسرة بعل ٤٣
التقرير ٥١
جماعة المدير ٦١
ممنون شواربك ٧٣
موت البلياتشو ٦٧
مزحة ٧٩
عبد الله عبد الإله ٨٧
شاعر بلدنا محي أفندي ٩١
دلال عقارات ٩٧
بغلة جاسم ١٠٩
الصفقة ١١٧
إخراج روح ١٣١
المبدع ذو الضفتين ١٣٩
حصرم حلبي «محاكاة مازحة» ١٤٥

ظهرت القصة الساخرة في سورية، أول ما ظهرت في مطلع الخمسينات، وقد أحب الناس هذا اللون القصصي كثيراً. أما الوسط الثقافي فقد تحفظ على هذا اللون في حينه، ثم اتضح له، أن تحفظه لم يكن في محله، ومنذ ذلك الحين ظهر عدد لا يستهان به من كتاب القصة الساخرة في سورية، ويسعى هذا الكتاب إلى تقديم نماذج للقصة الساخرة في سورية، وهذه النماذج، قد تنفع الدارسين وقد لاتنفعهم، لكنه، في كل الأحوال، يهدف إلى إمتاع القارىء وإفادته.

الناشر

السعر: ٧٥ ل. س